مَدَارِجُ العُبُودِيَّة
مِنْ
هَدْيِ خَيْرِ البَرِيَّة

بقلم
أبي أُسامة سليم بن عيد الهلالي

دار الصّميعي للنّشر والتّوزيع

الطبعة الثانية

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف: ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩ - فاكس: ٤٢٤٥٣٤١

الرياض - السويدي - شارع السويدي العام

ص. ب: ٤٩٦٧ - الرمز البريدي: ١١٤١٢

المملكة العربية السعودية

مَدَارِجُ الْعُبُودِيَّة

مِنْ

هَدْيِ خَيْرِ الْبَرِيَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ وَالإنسَ إلَّا لِيَعبُدُون

بسم الله الرّحمن الرّحيم

إنَّ الحمدَ للَّه نَحمدُه، وَنَستعينُه، ونستَغفِرُه، ونَعوذُ باللَّهِ من شرور أنفُسنا، ومن سيِّئَاتِ أعمالنا، من يَهدِهِ اللَّه فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَن يُضلل فَلا هَاديَ لَهُ .

وأشهَدُ أن لا إله إلَّا اللَّه وَحدَهُ لا شريكَ له .

وأشهَدُ أن مُحَمَّداً عبدُه ورسولُه .

أمَّا بَعدُ : فَإنَّ اللَّه سُبحانَهُ وتعالى خَلَقَ الخَلقَ لِعُبوديَّتِه الجامِعَةِ لِكَمالِ الحُبِّ بغايةِ الذُّلِّ وَالخُضُوعِ والانقيَادِ لأمرِهِ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ والإنسَ إلَّا ليَعبُدون** ﴾ [**الذَّاريات ٥٦**] .

والعُبوديَّة هيَ سَبَبُ إنزالِ الكُتُبِ، فقد قال سبحانه : ﴿ **يُنَزِّلُ الملائكَة بالرُّوحِ من أمرِهِ على مَن يَشاءُ من عِبادِهِ أن أنذِروا أنَّهُ لا إله إلَّا أنا فَاتَّقُون** ﴾ [**النَّحل : ٢**] .

وَهيَ - أيضاً - سَبَبُ إرسالِ الرُّسُلِ صَلوات اللَّه عليهم وسلامُه، فقال عزَّ وجَلَّ : ﴿ **وَمَا أرسَلنا من قَبلِكَ من رَسولٍ إلَّا نوحي إليهِ أنَّهُ لا إله إلَّا أنا**

فاعبُدون ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

ولذلك، فإنَّ العُبُوديَّة هي أعظمُ ما يُحَصِّلُه العَبدُ في حياتِه الدُّنيا؛ لتكونَ وسيلةَ نَجاتِه في الدَّارِ الأُخرى .

وَعلى قَدرِ اجتِهادِ العَبدِ في تَحقيقِ العُبُوديَّة وَتكميلها تَكتَمِلُ مَحَبَّةُ العَبد لِرَبِّه، وَتَتَحقَّقُ مَحَبَّةُ الرَّبِ لِعَبدِه .

وَلَمَّا رَأَيتُ الأمرَ كَمَا وَصَفتُ، وَجَبَ شَرحُ القَولِ في حَقيقةِ العُبُوديَّةِ، وأقسامِها، وَمَراتبِها، وَأنواعِها، وَمُوجِبَاتِها، وَعلامَاتِها، وَكَيفَ نَعمَلُ على تَحقيقِها ؟ وَمَا هيَ ثمارُها وَآثارُها ؟ وَكَيفَ نَتَجَنَّب عَثرات الطَّريق إلَيها ؟ وَغير ذلك مِمَّا يَتَّصِلُ بِها وَسَمَّيتُهُ « مَدَارج العُبُوديَّة من هَديِ خَيرِ البَرِيَّةِ » .

وَلتَحقيق ذلك انتَخَبتُ بُحوثاً من ضَنائِنِ العِلمِ وَغواليه، وَجدتُها مَنثُورَةً في كُتبِ التَّفسيرِ وَالحديثِ وَالرَّقائقِ، فَجَمَعتُ شَتَاتها بِتَرتيبٍ فائقٍ، وَهَذَّبتُها بأُسلوبٍ رائِقٍ، بَل زدتُ وَصَحَّحتُ، وَهَذَّبتُ وَنَقَّحتُ، فإن نَجَحتُ وَأفلَحتُ؛ فَمِن اللّه، وَالخيرُ مِلءُ يَدَيهِ، وَالشَرُّ لَيسَ إليهِ، وَإن أخطَأتُ وَجَمَحتُ؛ فَمِن نَفسي وَالشَّيطان، وأَعُوذُ باللّه من الخِذلانِ .

وقد اتَّكأتُ كَثيراً على ما كَتَبَهُ شيخا الإسلام :

ابنُ تيميَّة وتلميذُه ابن قيِّم الجوزيَّة، وليعلم القارئُ الكريمُ أنَّ هذهِ خُطَّةٌ سَوِيَّةٌ دَرَجَ عَليها عُدُولٌ من الأُمَّةِ الإسلاميَّة، ولكن بعضَ الموتورينَ - مِن أحفَادِ عبدالله القَصيمي وَعبدِالحُسَين شرف الدِّين ومحمود أبي ريَّة الذينَ أعملوا مَعاوِلَ الهَدم وَالتَّشكيك في السُّنَّةِ النَّبويَّةِ تحتَ سِتَارٍ من التَّحقيقاتِ العِلميَّةِ - قَد جَالوا وَمَالوا، وأبدوا وأعادوا، وقَعقعوا وفَرقَعوا، لجهلهم بمناهِجِ التَّأليفِ وآدابِ التَّصنيفِ، فَرَمونا بمَا ليسَ فينا بِدعوى التَّعريف، وَاللَّه يعلم أنَّ قَصدهم غَير شريف، وأُسلوبهم غير نَظيف، فَعمادُهُ البَخسُ وَالتَّطفيفُ، ولكن لا يَكَادُ البطَّالُ يُفلح، ولا يَكَادُ صاحِبُ الهَوى يَفرَح، ولا يَكَادُ الحَقُودُ يَسودُ، وَمَن زَبَّبَ قَبلَ أن يُحصرِمَ لَن يَقطِفَ العُنقُودَ .

وَلَمَّا تَكَشَّفَت لَنا أهدافُ العُصبَة الرَّديَّة، الَّتي تُحرِّكها تَجمُّعاتٌ حِزبيَّةٌ وأُخَرُ تجاريَّة : تَنَوَّعت دَوافِعها ولكنَّها اجتمعت على النَّيلِ من الدَّعوةِ السَّلفيَّةِ في صُورةِ تَجريحِ دُعاتِها، تَرَكنا مِرَاءَهُم - وَنَحنُ مُحِقُّونَ -؛ لأنَّ ذلكَ من تَمَام العُبُوديَّة كَمَا جَاءَ على لسانِ خَيرِ البَريَّة حيثُ قال ﷺ : « أنا زَعيمٌ بِبَيتٍ في رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَن تَرَكَ المِراءَ وإن

كانَ مُحِقّاً »[1].

فانقلبَ السِّحرُ على السَّاحر، وعلى الباغي تَدُورُ الدَّوائِرُ : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا لا تَتَّخِذوا بِطَانَةً من دونِكُم لا يأْلونَكم خبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّم قد بَدَت البغضاءُ من أفواهِهم وَمَا تُخفي صُدورهم أكبرُ قد بيَّنَّا لكُم الآياتِ إن كُنتُم تَعقِلونَ * هَا أنتُم تُحِبُّونَهُم ولا يُحِبُّونَكم وَتُؤمِنونَ بالكِتابِ كُلِّه وإذا لَقوكُم قالوا آمَنَّا وإذا خَلَوا عَضُّوا عَلَيكُم الأنامِلَ مِنَ الغَيظِ قُل مُوتوا بِغَيظِكُمْ إنَّ اللَّهَ عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ * إن تَمسَسْكُم حَسَنَةٌ تَسؤْهُم وإن تُصِبكُم سَيِّئَةٌ يَفرَحوا بِها وإن تَصبِروا وَتَتَّقوا لا يَضُرُّكُم كَيدُهُم شيئاً إنَّ اللَّه بمَا يَعملون مُحيط ﴾ [آل عمران : ١١٨ - ١٢٠] .

وتَوضيحاً لهذا المنهَجِ العلميِّ المعروفِ المَألوفِ، أقول : إذا نَقَلتُ بَحثاً عَزَوتُه لقائِلهِ؛ فمِن بَرَكَةِ العِلم عَزوُه لقائِله، فإن أجرَيتُ عليهِ تَعديلاً باختِصارٍ أو تَصرُّفٍ أو غير ذلك بيَّنتهُ بإزاءِ العَزوِ في الحاشية .

وإن كانت فِكرَةً استوعَبتُها وَنَسجتُ حَولها وَأَغنيتُها بَحثاً واستقراءً واستدلالاً؛ فذاكَ أمرٌ آخر، وإن لم يفرِّق

(١) صحيح بشواهده؛ كما بيَّنته في كتابي « مكارم الأخلاق » (ص ٤٨ - ٤٩) .

بينهما عائِرٌ حائرٌ .

فَمَن وَجدَ صَواباً؛ فَليَحمد اللّه الَّذي بِنِعمَتِه تَتِمُّ الصَّالحاتُ، وَمَن وَجدَ خطأً فَلا يَأْلُ جهداً في النُّصح لي وَتَذكيري؛ فإنَّ ذلكَ من ضَعفي وَتَقصيري، وأسألُ اللّهَ أنْ يَغفِرَ لي هَزلي وَجدِّي، وَكُلُّ ذلكَ عِندي .

وَرَحِمَ اللّه عَبداً ناصحاً أميناً وَجدَ ما يُوجِبُ النُّصحَ، فقامَ بواجِبِ النُّصحِ وَالسَّترِ، فإنَّ المَرءَ قَويٌّ بإخوانِه الَّذينَ يَتواصَونَ بالحَقِّ، وَيَتواصَونَ بالصَّبرِ، وَيَتواصَونَ بالمَرحمَةِ .

وَعَلى اللّه قَصدُ السَّبيلِ، وَمنها جائرٌ؛ نَعوذُ باللّه مِنَ الجَوْرِ، وَمِنَ الحورِ بَعدَ الكَوْرِ .

وَكَتبَهُ حامداً وَمُصَلِّياً وَمُسلِّماً

أبو أُسامَة سليم بن عيد الهلالي السَّلفيُّ الأثريُّ

ضُحى يَومِ الأربعاء ليلتين بَقيتا من شهر المحرَّم

سَنَة ألف وأربع مئة وثلاثة عشر

من هجرة رسول اللّه ﷺ

في عمَّان البلقاء

عاصمة الأُردن

العُبُوديّة سرُّ الخلق

اعلَم أنَّ اللَّه لَم يَخلُق السَّمَاواتِ وَالأرضَ وَمَا بينَهُما وَمَا فيهما إلاَّ بالحَقِّ، كَمَا قال تَعالى : ﴿ **وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأرضَ بالحَقِّ وَلِتُجزَى كُلُّ نفسٍ بِمَا كَسَبَت وَهُم لا يُظلَمُونَ** ﴾ [**الجاثية : ٢٢**] .

ولَم يَخلُقْهما باطِلاً، وَمَن كانَ لَهُ قَلبٌ أو ألقى السَّمعَ وَهوَ شَهِيدٌ أدرَكَ هذا الأمْرَ بأدنى تَفكُّرٍ، فَلِذلكَ يَقولُ أهلُ العلمِ وَالإيمَانِ كَمَا يُخبِر اللَّه عنهم : ﴿ **إنَّ في خَلقِ السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ وَاختِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ لآيَاتٍ لأُولي الألبَابِ * الَّذينَ يَذكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِم وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلقِ السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ رَبَّنَا مَا خَلَقتَ هذا بَاطِلاً سُبحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [**آل عمران : ١٩٠ - ١٩١**] .

إنَّ مَا في الكَونِ لَيُوحي أنَّ وَرَاءَ هذهِ الحَيَاة الدُّنيا آخِرَةٌ، وَيشي بِوُجُودِ إله يُدَبِّرُهُ بِحكمَة، فَهوَ يَحمِلُ دَلائلَ

الإيمَان وَآيَاتِه .

وإنَّمَا يُدرِكُ هذهِ الدَّلائل، وَيَقرأُ هذهِ الآيات، وَيَرى هذه الحِكمة أُولو الألبَابِ الَّذينَ لا يَمُرُّونَ بِها دونَ تَأثُّرٍ أو تَفكُّرٍ أو تَدَبُّرٍ، وَلذلكَ فَهُم يُدرِكُونَ أيضاً أنَّ الإنسَانَ لَم يُخلَق عَبَثاً، وَلَن يُترَك سُدَىً هَمَلاً : ﴿ **أفَحَسِبتُم أنَّمَا خَلَقنَاكُم عَبَثاً وَأنَّكُم إلَينَا لا تُرجَعُونَ * فَتَعَالى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ لا إله إلاَّ هوَ رَبُّ العَرشِ الكَرِيمِ** ﴾ [**المُؤمنونَ : ١١٥ - ١١٦**] .

وقال تعالى : ﴿ **أيَحسَبُ الإنسَانُ أن يُترَكَ سُدَىً** ﴾ [**القيَامة : ٣٦**] .

فَاللَّه تعالى إنَّمَا خَلَقَ الخَلقَ لِعِبَادَتِه، فَالعُبُوديَّةُ هيَ الغَايَةُ الَّتي خُلِقَ لَها الجِنُّ وَالإنسُ وَالخَلائقُ أجمَعُونَ .

وقَد صَرَّحَ تعالى بهذا في قوله : ﴿ **وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ وَالإنسَ إلاَّ لِيَعبُدُون** ﴾ [**الذَّاريات : ٥٦**] .

وَبِهذا يَتَبَيَّن أنَّ هُنَاكَ غَايَةً لِوُجُودِ الجِنِّ وَالإنسِ مَن قَامَ بِها وَأدَّاها كَمَا أُمِرَ فَقَد حَقَّقَ غَايَةَ وُجودِه، وَمَن قَصَّرَ فيها أو نَكَلَ عَنها فَقَد أهدَرَ غَايَةَ وُجودِه .

هذهِ الغَايَةُ الَّتي تَربُطُ الجِنَّ وَالإنسَ هيَ العُبُوديَّةُ للَّه :

أن يَكُونَ هُنَاكَ رَبٌّ وَعَبدٌ : رَبٌّ يُعبَدُ، وَعَبدٌ يَعبُد .

وَلذلكَ فإنَّ مَدلُولَ العُبُودِيَّةِ لا بُدَّ أن يَكُونَ أوْسَعَ وَأشمَلَ وَأعمَقَ مِن مُجَرَّدِ إقَامَةِ شَعَائرَ مَخصُوصةٍ ... **فَمَا هيَ حَقيقة العُبُودِيَّة ؟**

حَقيقَةُ العُبُوديَّة

قال شَيخُ الإسلام ابن تَيمِيَّة رَحمه اللَّه :

« العِبَادَةُ : هيَ اسمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحبُّه اللَّه ويَرضَاهُ منَ الأقوَالِ وَالأعمَالِ البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ :

فَالصَّلاةُ، وَالزكَاةُ، وَالصِّيَامُ، وَالحَجُّ، وَصِدقُ الحَديثِ، وَأَدَاءُ الأمَانَةِ، وَبِرُّ الوَالِدَينِ، وَالوَفَاءُ بالعُهُودِ، وَالأمرُ بالمَعرُوفِ، وَالنَّهيُ عَن المُنكَرِ، وَالجِهَادُ للكُفَّارِ وَالمُنَافِقينَ، وَالإحسَانُ للجَارِ وَاليَتِيم وَالمسكِين وَابن السَّبيلِ وَالمَملُوكِ مِنَ الآدَمِيِّينَ وَالبَهَائِمِ، وَالدُّعَاء، وَالذِّكرُ، وَالقِرَاءَةُ، وَأَمثَالُ ذلكَ منَ العِبَادَةِ .

وَكَذلكَ حُبُّ اللَّه وَرسولِهِ، وَخَشيَةُ اللَّه، وَالإنَابَةُ إلَيهِ، وَإخلاصُ الدِّينِ لَهُ، وَالصَّبرُ لِحُكمِه، وَالشُّكرُ لِنِعَمِه، وَالرِّضى بِقَضَائِه، وَالتَّوَكُّل عَلَيه، وَالرَّجَاءُ لِرحمتِهِ، وَالخَوفُ مِن عَذَابِه، وَأَمثَالُ ذلكَ : هيَ منَ العِبَادَةِ للَّه .

وذلكَ أنَّ العِبَادَةَ للَّه هيَ الغَايَةُ المَحبُوبَةُ لَهُ، وَالمُرضيَة

لَهُ، الَّتي خَلَقَ الخَلقَ لَها، كَمَا قالَ اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ وَالإنسَ إلاَّ لِيَعبُدُون ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وبها أرسلَ الرُّسُل صَلَوَاتُ اللَّه عَليهم وَسَلامُه، كُمَا قال تعالى : ﴿ وَلَقَد بَعَثنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسولاً أن اعبُدُوا اللَّهَ وَاجتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنهُم مَن هَدى اللَّهُ وَمِنهُم مَن حَقَّت عَلَيهِ الضَّلالَةُ ﴾ [النحل : ٣٦] .

وجعل ذلكَ لازِمَاً لِرَسولهِ ﷺ إلى المَوت، كَمَا قال : ﴿ وَاعبُد رَبَّكَ حَتَّى يَأتِيَكَ اليَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] .

وبذلكَ وَصَفَ مَلائِكَتَهُ وَأنبِيَاءَهُ صَلوَاتُ اللَّهِ عليهِم وسَلامُه، فقال تعالى : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ وَمَن عندَهُ لا يَستَكبِرونَ عَن عِبَادَتِه وَلا يَستَحسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ لا يَفتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٩ - ٢٠] .

وذَمَّ المُتَكَبِّرِينَ عَنها بقوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُم ادعُونِي أستَجِب لَكُم إنَّ الَّذِينَ يَستَكبِرُونَ عَن عِبَادَتِي سَيَدخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

فالدِّينُ كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي العِبَادَةِ .

وَقَد ثَبَتَ في « الصَّحيحِ »[1] أنَّ جِبريلَ لَمَّا جَاء إلى النَّبيِّ ﷺ في صُورَةِ أعرابِيّ وَسَألَهُ عَن الإسلامِ ؟ قال :

« الإسلامُ أن تَشهَدَ أن لا إلهَ إلَّا اللَّه، وَأنَّ مُحَمَّداً رَسول اللَّه، وتُقيم الصَّلاة، وتُؤتي الزَّكَاة، وتَصُومَ رَمَضَانَ، وتَحجَّ البَيتَ إن استَطَعتَ إلَيهِ سَبيلاً » .

قال : فَمَا الإيمَانُ ؟

قال : « أن تُؤمِنَ باللَّه، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِه، وَرُسُلِهِ، وَالبَعثِ بَعدَ المَوتِ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيرِه وَشَرِّه » .

قال : فَمَا الإحسَان ؟

قال : « أن تَعبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإن لَم تَكُن تَرَاهُ، فإنَّهُ يَرَاكَ » .

ثُمَّ قالَ في آخِرِ الحَديث : « هذا جِبريلُ أتَاكُم يُعَلِّمُكم دِينَكُم » .

فَجَعَلَ هذا كُلَّهُ في الدِّينِ .

وَالدِّينُ يَتَضَمَّن مَعنى الخُضُوعِ وَالذُّلِّ، فَدينُ اللَّه : عِبَادَتُه وَطَاعَتُه وَالخُضُوع لَهُ .

وَالعِبَادَةُ المَأمُورُ بِها تَتَضَمَّنُ مَعنى الحُبِّ، وَمَعنى الذُّلِّ : فَهيَ تَتَضَمَّن غَايَة الحُبِّ للَّه تعالى، بغَايَة الذُّلِّ له .

---

(١) صحيح مسلم (٨) .

فإن قيلَ : فإذا كانَ جَميعُ مَا يُحِبُّهُ اللَّه دَاخِلاً في اسمِ العِبَادَةِ، فَلِمَاذا عَطَفَ عَلَيها غيرَها، كَقَوله في فاتِحة الكِتَاب : ﴿ **إِيَّاكَ نَعبُدُ وَإِيَّاكَ نَستَعِينُ** ﴾ .

وقَولهُ لِنَبِيِّه : ﴿ **فَاعبُدهُ وَتَوَكَّل عَلَيهِ** ﴾ [**هود** : **١٢٣**] .

وقولِ نُوحٍ : ﴿ **اعبُدُوا اللَّه وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُون** ﴾ [**نوح** : **٣**] .

وكَذلكَ قَولُ غَيرِهِ منَ الرُّسُلِ ؟

قيلَ هذا لَهُ نَظَائرٌ، كَمَا في قَوله : ﴿ **إنَّ الصَّلاةَ تَنهى عَنِ الفَحشَاءِ وَالمُنكَرِ** ﴾ [**العنكبُوت** : **٤٥**] ، وَالفَحشَاءُ منَ المُنكَرِ .

وكَذلكَ قوله : ﴿ **إنَّ اللَّه يَأمُرُ بالعَدلِ وَالإِحسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُربى وَيَنهى عَنِ الفَحشَاءِ وَالمُنكَرِ وَالبَغيِ** ﴾ [**النحل** : **٩٠**] ، وإِيتَاءِ ذِي القُربى : هوَ منَ العَدلِ وَالإِحسَانِ، كَمَا أَنَّ الفَحشَاءَ وَالبَغيَ منَ المُنكَرِ .

وكَذلكَ قوله : ﴿ **وَالَّذينَ يُمَسِّكُونَ بالكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ** ﴾ [**الأعراف** : **١٧٠**] ، وَإِقَامَةُ الصَّلاة مِن أعظَمِ التَّمَسُّك بالكِتَابِ .

وكَذلكَ قوله عن أنبيائِه : ﴿ **إنَّهُم كَانُوا يُسَارِعُونَ في الخَيرَاتِ وَيَدعونَنَا رَغَباً وَرَهَباً** ﴾ [**الأنبياء ٩٠**] ، وَدُعَاؤُهمُ رَغباً وَرَهَباً منَ الخَيرَاتِ .

وَأمثَالُ ذلكَ في القُرآنِ كَثيرٌ .

وَهذا البَابُ : يَكونُ تَارَةً مَع كَونِ أَحَدِهِمَا بَعضُ الآخَر، فيُعطَفُ عَلَيهِ تَخصيصاً لهُ بالذِّكرِ، لكَونِه مَطلُوباً بالمَعنى العَامِّ، وَالمَعنى الخَاصِّ .

وتَارَةً تَتَنَوَّعُ دَلائلُ الاسمِ بحالِ الانفِرَادِ وَالاقتِرَانِ، فإذا أُفرِدَ عَمَّ، وَإذا قُرِنَ بِغَيرِه خُصَّ، كاسم : « الفَقير » وَ : « المسكين »، لَمَّا أُفرِدَ أحَدُهُما في مِثلِ قَوله : ﴿ **للفُقَرَاءِ الَّذينَ أُحصِروا في سَبيلِ اللَّه** ﴾ [**البقرة : ٢٧٣**] . وقوله : ﴿ **أو إطعَامِ عَشرَةِ مَسَاكين** ﴾ [**المَائدة : ٩٢**] ، دَخَلَ فيهِ الآخَرُ .

ولَمَّا قَرَنَ بيَنَهُمَا في قَوله : ﴿ **إنَّمَا الصَّدَقَاتُ للفُقَرَاءِ وَالمَسَاكين** ﴾ [**التوبة : ٦١**]، صَارَا نوعَينِ .

وَقَد قيلَ : إنَّ الخَاصَّ مَعطُوفٌ عَلى العَامِّ لا يَدخُلُ في العَامِّ حَالَ الاقتِرَانِ، بَل يَكُون من هذا البَابِ .

وَالتَّحقيقُ أنَّ هذا لَيسَ لازِماً :

قال تعالى : ﴿ مَن كانَ عَدُوّاً للّه وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِه وَجِبريلَ وَمِيكَالَ ﴾ [البقرة : ٩٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَإذ أَخذنَا مِنَ النَّبيِّين مِيثَاقَهُم وَمِنكَ وَمِن نُوحٍ وَإبرَاهيمَ وَمُوسى وَعيسى ابن مَريَمَ ﴾ [الأحزَاب : ٧] .

وَذِكْرُ الخَاصِّ مَعَ العَامِّ يَكُونُ لأسبَابٍ مُتَنَوِّعَةٍ :

تَارَةً لِكَونِه لَهُ خَاصِيَّة لَيسَت لسَائر أفرَادِ العَامِّ، كَمَا في نُوحٍ وَإبرَاهيم وَمُوسى وَعيسى .

وتَارَةً لكَونِ العَامِّ فيهِ إطلاقٌ قَد لا يُفهَم منَ العُمُومِ، كَمَا في قَوله : ﴿ هُدَىً للمُتَّقينَ ۞ الَّذينَ يُؤمِنُونَ بالغَيبِ وَيُقيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقنَاهُم يُنفِقُونَ ۞ وَالَّذينَ يُؤمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبلِكَ ﴾ [البقرة : ٢ – ٥] .

فقوله : ﴿ يُؤمِنُونَ بالغَيبِ ﴾ : يَتَنَاوَل كلَّ الغَيبِ الَّذي يَجبُ الإيمَانُ بِه، لكن فيهِ إجمَالٌ، فَليسَ فيهِ دَلالَةٌ عَلى أنَّ منَ الغَيبَ : مَا أُنزِلَ إلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبلكَ .

ومِن هذا البَابِ قوله تعالى : ﴿ اتلُ مَا يُوحى إلَيكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ ﴾ [العنكبوت : ٤٥]، وقوله : ﴿ وَالَّذينَ يُمَسِّكُونَ بالكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ﴾

[الأعراف : ١٧٠] .

وتِلاوَة الكِتَابِ : هيَ اتِّبَاعه وَالعَمَل بِه ، كَمَا قالَ ابن مسعود في قَوله تعالى : ﴿ الَّذينَ آتيْنَاهُم الكِتَابَ يَتلُونَهُ حَقَّ تِلاوتِهِ ﴾ [البقرة : ١٢١] ، قال : « يُحِلُّونَ حَلالَهُ، وَيُحَرِّمونَ حَرَامَهُ، وَيُؤمِنُونَ بِمُتَشَابِهِه، وَيَعمَلونَ بِمُحكَمِهِ » .

فاتِّبَاعُ الكِتَاب، يَتَنَاوَل الصَّلاةَ وَغَيرَها، لَكن خَصَّهَا بالذِّكرِ لمِزيَّتِها .

وكَذلك قوله لموسى : ﴿ إنَّني أنَا اللَّهُ لا إلهَ إلاَّ أنَا فَاعبُدُوني وَأَقِم الصَّلاةَ لِذِكري ﴾ [طه : ١٤] ، وَإقَامَة الصَّلاةِ لِذِكرِهِ مِن أجَلِّ عِبادَتِه .

وكَذلك قوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّه وَقُولوا قَولاً سَدِيداً ﴾ [الأحزَاب : ٧٠]، وقوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّه وَابتَغُوا إلَيهِ الوَسِيلَةَ ﴾ [المَائدة : ٣٥]، وقوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّه وكُونُوا مَعَ الصَّادِقينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] .

فإنَّ هذهِ الأُمور هذَ أيضاً من تَمامِ تقوى اللَّه .

وكذلكَ قوله : ﴿ فَاعبُدهُ وَتَوَكَّل عَليهِ ﴾ [هود : ١٢٣] ، فإنَّ التَّوَكُّل هوَ الاستِقَامَةُ، وَهيَ مِن عِبَادَةِ اللَّه، لكن خُصَّت بالذِّكرِ، لِيَقصِدَها المُتَعَبِّدُ بِخُصُوصِها، فإنَّها هيَ

العَونُ عَلى سَائِرِ أنوَاعِ العِبَادَةِ، إذ هوَ سُبحَانهُ لا يُعبَدُ إلاَّ بِمَعُونَتِه .

إذا تَبيَّنَ هذا فكَمَالُ المَخلُوق : في تَحقيق عُبُودِيَّةِ اللَّه، وكُلَّمَا ازدَادَ العَبدُ تَحقيقاً للعُبُودِيَّةِ ازدَادَ كَمَالُه وعَلت دَرَجَتُه » أ . هـ[1].

فكَيفَ يُحقِّقُ العَبدُ العُبُودِيَّةِ ؟

---

(١) « العُبُودِيَّة » (ص ١٧ - ٢٦ و ٧٠ -٧٥) باختِصَار .

تحقيق العبوديّة

قال شَيخُ الإسلام ابن تيميَّة رحمه اللَّه :

« وَالعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ وَالاستِقَامَةُ وَلُزُومُ الصِّرَاطِ المُستَقيم وَنَحو ذلكَ منَ الأسمَاءِ مَقصُودُها وَاحِدٌ، وَلَها أصلانِ :

أحَدُهُمَا : أن لا يُعبَد إلَّا اللَّه .

الثَّاني : أن لا يَعبُدَهُ إلَّا بِمَا أمَرَ وَشَرَعَ ، وَلا يَعبُدَهُ بِغَيرِ ذلكَ منَ الأهوَاءِ وَالظُّنُونِ وَالبِدَعِ .

قالَ تعالى : ﴿ **فَمَن كانَ يَرجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَليَعمَل عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشرِك بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أحَداً** ﴾ [**الكَهف : ١١٠**] .

وقال تعالى : ﴿ **بَلَى مَن أسلَمَ وَجهَهُ للَّهِ وَهوَ مُحسِنٌ فَلَهُ أجرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنُونَ** ﴾ [**البقرة : ١١٢**] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَن أحسَنُ دِيناً مِمَّن أسلَمَ وَجهَهُ للَّه وَهوَ مُحسِنٌ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إبرَاهيمَ خَليلاً** ﴾ [**النِّساء : ١٢٤**] .

وَذلكَ تَحقيقُ الشَّهَادَتَيْنِ : شَهَادَةِ أَنَّ لا إِلهَ إِلاَّ اللّه، وَشَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رسول اللّه .

فَفي الأُولى : أن لا نَعبُدَ إلاَّ إيَّاهُ .

وفي الثَّانيَةِ : أنَّ مُحَمَّداً هوَ الرَّسولُ المُبَلِّغُ عَنهُ، فَعَلَينا أن نُصَدِّق خَبَرَهُ، وَنُطيعَ أمرَهُ .

وَقَد بيَّنَ لَنَا مَا نَعبُدُ اللّه بِه، وَنَهَانا عَن مُحدَثَاتِ الأمُورِ، وَأخبَرَ أنَّها ضَلالَة[1] .

وَكَمَا أنَّنا مَأمُورُونَ أن لا نَخَافَ إلاَّ اللّه، وَلا نَتوَكَّل إلاَّ عَلى اللّه، وَلا نَرغَبَ إلاَّ إلى اللّه، وَلا نَستَعِين إلاَّ باللّه، وَأن لا تَكُنَ عِبادَتُنا إلاَّ للّه، فَكَذلكَ نَحنُ مَأمُورُونَ أن نَتَّبِعَ الرَّسول وَنُطيعَهُ، وَنَتأَسَّى بِه، فالحلالُ مَا حَلَّلَه، وَالحَرَامُ مَا حَرَّمَه، وَالدِّينُ ما شَرَعَهُ .

قال تعالى : **﴿ وَلَو أَنَّهُم رَضوا مَا آتاهمُ اللّهُ وَرَسولُه وَقالوا حَسبُنَا اللّه سَيُؤتِينَا اللّهُ مِن فَضلِه وَرَسُولهُ إنَّا إلى اللّهِ رَاغِبُونَ ﴾** [**التوبة** : ٦٠]؛ فَجَعَلَ الإيتَاءَ للّهِ وَللرَّسُول؛ كَمَا قال : **﴿ وَمَا آتَاكُم الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنهُ فَانتَهُوا ﴾** [**الحشر** : ٧] .

---

(١) وَانظُر لِزَامَاً كِتَابي : « البِدعَةُ وَآثَرُها السَّيِّىءُ في الأُمَّةِ » .

وجَعَلَ التَّوَكُّل عَلى اللّه وَحدَهُ بقوله : ﴿ وَقَالوا حَسبُنَا اللَّه ﴾، وَلَم يَقُل : وَرَسُولُهُ، كَمَا قالَ في وَصفِ الصَّحَابة رضي اللّه عنهم في الآيَة الأُخرى : ﴿ الَّذينَ قالَ لَهُم النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَد جَمَعوا لَكُم فَاخشَوهُم فَزَادَهُم إيمَاناً وَقَالوا حَسبُنَا اللَّه وَنِعمَ الوَكِيل ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

ومِثلُه قوله : ﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسبُكَ اللَّه وَمَن اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٤]، أي حَسبُكَ وَحَسبُ المُؤمنينَ، كَمَا قال : ﴿ أَلَيسَ اللَّه بِكَافٍ عَبدَهُ ﴾ [الزُّمر : ٣٦] .

ثمَّ قال : ﴿ سَيُؤتِينا اللَّه مِن فَضلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾، فَجَعَلَ الإِيتَاءَ للَّه وَللرَّسول، وَقَدَّم ذِكر الفَضل للَّه؛ لأنَّ الفَضل بِيدِ اللَّه يُؤتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّه ذُو الفَضلِ العَظِيم، وَلَهَ الفَضلُ عَلى رَسولهِ وَعَلى المُؤمنينَ .

وقال تعالى : ﴿ إنَّا إلى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾، فَجَعَلَ الرَّغبَةَ إلى اللَّه وَحدَهُ كَمَا في قوله : ﴿ فإذا فَرَغتَ فَانصَب * وَإلى رَبِّكَ فَارغَب ﴾ [الانشراح : ٧ - ٨] .

وقال النَّبيُّ ﷺ لابن عبَّاسٍ :

« إذا سَأَلتَ فَاسأَل اللَّه، وَإذا استَعَنتَ فَاستَعِن

بالله »[1] .

وَالقُرآن يَدُلُّ عَلى مِثل هذا في غَيرِ مَوضِعٍ .

فجَعَلَ العِبَادَة وَالخَشيَة وَالتَّقوى لله، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ وَالمَحَبَّةَ لله وَرَسولِهِ، كَمَا في قَولِ نُوحٍ عَلَيهِ السَّلام : ﴿ أنِ اعبُدوا اللَّه وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُون ﴾ [نُوح : ٣] .

وَقَوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّه وَرَسُولَهُ وَيَخشَ اللَّه وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ ﴾ [النُّور : ٥٢] .

وَأمثَالُ ذلكَ .

فالرُّسُل أُمِروا بِعِبَادَة اللَّه وَحدَهُ، وَالرَّغبَةِ إلَيهِ، وَالتَّوكُّلِ عَلَيهِ، وَطَاعتِه، وَالطَّاعَة لَهم، فَأضَلَّ الشَّيطَانُ النَّصارى وَأشبَاهَهُم، فأشرَكُوا باللَّه، وَعَصَوا فَجَعَلُوا يَرغَبُونَ إلَيهم، وَيَتَوَكَّلونَ عَلَيهِم، وَيَسأَلُونَهُم؛ مَعَ مَعصِيَتِهِم لأمرِهِم، وَمُخَالَفتِهِم لسُنَّتِهِم، وَهَدى اللَّه المُؤمنينَ المُخلصينَ لله، أهلَ الصِّرَاطِ المُستَقيم، الَّذينَ عَرَفُوا الحَقَّ وَاتَّبَعُوهُ، فَلَم يَكُونوا منَ المَغضُوبِ عَليهِم، وَلا الضَّالين، فأخلَصُوا دينَهُم للَّه، وَأسلَموا وُجُوهَهُم لله، وَأَنَابوا إلى رَبِّهِم، وَأحَبُّوهُ، وَرَجَوهُ، وَخافُوهُ، وَسَأَلوهُ،

(١) صحيح كَمَا بيَّنتهُ في « صحيح كتاب الأذكَار وَضَعيفه » (١٢٦١ / ١٠٠٠) .

وَرَغِبوا إِلَيهِ، وَفَوَّضُوا أمرَهُم إِلَيهِ، وَتَوَكَّلوا عَلَيهِ، وَأَطَاعوا رُسُلَه، وَعَزَّرُوهُم[1]، وَوَقَّرُوهُم، وَأَحَبُّوهُم، ووَالُوهُم، وَاتَّبَعُوهُم، وَاقتَفُوا آثارَهُم، وَاهتَدوا بِمَنَارِهِم .

فَالعَمَل الصَّالح : هوَ الإِحسَانُ، وَهوَ فِعلُ الحَسَنَات، وَالحَسَنَاتُ هيَ ما أَحَبَّهُ اللَّه وَرَسُولهُ، وَهوَ مَا أَمَرَ اللَّه بِه أَمرَ إِيجَابٍ أَو استِحبَابٍ .

فَمَا كَانَ مِنَ البِدَعِ في الدِّين الَّتي لَيسَت في الكِتَابِ وَلا في صحيحِ السُّنَّةِ، فإِنَّها - وَإِن قَالَها مَن قَالَها، وَعَمِلَ بِها مَن عَمِلَ - لَيسَت مَشرُوعَةً، فإِنَّ اللَّه لا يُحِبُّها وَلا رَسُولهُ، فَلا تَكُونُ مِنَ الحَسَنَاتِ، وَلا مِنَ العَمَلِ الصَّالح؛ كَمَا أَنَّ مَن يَعمَل مَا لا يَجُوزُ، كَالفَوَاحِشِ وَالظُّلمِ، لَيسَ منَ الحَسَنَاتِ، وَلا مِن العَمَلِ الصَّالح .

وأَمَّا قولهُ تعالى : ﴿ وَلا يُشرِك بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [الكهف : ١١٠]، وقوله : ﴿ أَسلَمَ وَجهَهُ لله ﴾ [البقرة : ١١٢]، فَهوَ إِخلاصُ الدِّينِ لله وَحدَهُ .

وَكَان عُمر بن الخَطَّاب يقول :

« اللَّهمَّ اجعَل عَمَلي كُلَّهُ صَالحاً، وَاجعَلهُ لِوَجهِكَ خَالِصاً، وَلا تَجعَل لأَحَدٍ فيهِ شَيئاً » .

---

(١) أي عَظَّمُوهُم .

وقال الفُضَيل بن عياض في قوله تعالى : ﴿ لِيبلُوكُم أيُّكُم أحسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك : ٢]، « أخلَصُهُ وَأصوَبُهُ » .

قالوا : يا أبا عَلي ما أخلَصُهُ وَأصوَبُه ؟

قال : إنَّ العَمَلَ إذا كانَ خَالصاً وَلَم يَكُن صَوَاباً، لَم يُقبَل، وَإذا كانَ صَوَاباً وَلَم يَكُن خَالِصاً، لَم يُقبَل، حَتَّى يَكُونَ خَالِصاً صَوَاباً .

وَالخَالصُ : أن يَكُونَ للَّه، وَالصَّوَابُ : أن يَكُونَ عَلى السُّنَّةِ .

وَذلكَ هوَ دينُ الإسلامِ الَّذي بَعَثَ اللَّه بِه الأوَّلينَ وَالآخِرينَ منَ الرُّسُل، وَهوَ الدِّينُ الَّذي لا يَقبَلُ اللَّه من أحَدٍ إلَّا إيَّاهُ، وهوَ حَقيقة العِبَادَةِ لربِّ العَالَمينَ .

فَنَسأَلُ اللَّه العَظيم أن يُثَبِّتنا عَلَيهِ، وَيُكَمِّلَهُ لَنَا، وَيُميتَنَا عَليهِ، وَسَائر إخوَانِنا المُسلمينَ .

وَالحَمدُ للَّه وَحدَهُ، وَصَلَّى اللَّه عَلى سَيِّدنا مُحمَّدٍ وَآلهِ وَصَحبِه وَسَلَّم » أ . هـ[1] .

قال ابن قيِّم الجَوزِيَّة رحمه اللَّه :

---

(١) « العُبُودِيَّة » (ص ٦٧ – ٧٠ وَ ١٨٥ – ١٩٠) باختِصَارٍ، وَزِيَادَةٍ، وَتَصَرُّفٍ .

« إذا عُرِفَ هذا : فَلا يَكُونُ العَبدُ مُتَحَقِّقاً بالعُبُودِيَّةِ إلَّا بأصلَينِ عَظِيمَينِ :

أحَدِهما : مُتَابَعَة الرَّسول ﷺ .

والثَّاني : الإخلاصُ للمَعبُود .

وَالنَّاسُ مَنقَسِمُونَ بِحسب هذَينِ الأصليَنِ أيضاً إلى أربَعَة أقسَام :

أحَدُها : أهلُ الإخلاص للمَعبُود وَالمُتَابَعَة ، وَهمُ أهلُ العُبُودِيَّة ، حَقِيقَةً .

فأعمالُهم كُلُّها للَّه ، وَأقوالُهم للَّه ، وَعَطاؤُهُم للَّه ، وَمَنعُهُم للَّه ، وَحُبُّهُم للَّه ، وَبُغضُهُم للَّه ، فَمُعَاملَتُهُم ظَاهِراً وَبَاطِناً لِوَجهِ اللَّه وَحدَهُ ، لا يُرِيدُونَ بذلكَ منَ النَّاسِ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ، وَلا ابتغَاء الجَاهِ عندَهمُ ، وَلا طَلَب المَحمَدَةِ ، وَالمَنزِلَةِ في قُلُوبِهم ، وَلا هَرَباً مِن ذَمِّهِم ، بَل قَد عَدُّوا النَّاسَ بِمَنزِلَةِ أصحَابِ القُبُورِ ، لا يَملِكُونَ لَهم ضَرّاً وَلا نَفعاً ، وَلا مَوتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً ، فَالعَمَلُ لأجلِ النَّاسِ ، وَابتِغَاءِ الجَاهِ وَالمَنزِلَةِ عِندَهمُ ، وَرَجَائِهم للضُّرِّ وَالنَّفعِ مِنهُم : لا يَكُونُ مِن عَارِفٍ بِهِم ألبَتَّةَ ، بَل مِن جَاهِلٍ بشَأنِهم ، وَجَاهِلٍ بِرَبِّهِ ، فَمَن عَرَفَ النَّاسَ أنزَلَهُم مَنَازِلَهُم . وَمَن عَرَفَ اللَّه أخلَصَ لهَ أعمَالَه وَأقوَالَه ، وَعَطَاءَهُ وَمَنعَه ، وَحُبَّهُ وَبُغضَهُ .

وَلا يُعَامِلُ أحَدَ الخَلقِ دُونَ اللّه إلاَّ لجَهلِهِ باللَّه وَجَهلِه بالخَلِق ، وَإلاَّ فإذا عَرفَ اللَّه وَعَرفَ النَّاسَ آثرَ مُعَامَلَةَ اللَّه عَلى مُعَاملَتِهم .

وَكَذلكَ أعمالهم كُلُّها وَعبَادتُهم مُوافقةٌ لأمرِ اللَّه ، وَلِمَا يُحِبُّهُ وَيَرضَاهُ .

وَهذا هوَ العَمَلُ الَّذي لا يَقبَلُ اللَّه مِن عَامِلٍ سِوَاهُ ، وَهوَ الَّذي بَلا عِبَادَه بالمَوتِ وَالحَيَاةِ لأجلِهِ قالَ تعالى :

﴿ **الَّذي خَلَقَ المَوتَ وَالحَيَاةَ لِيَبلُوَكُم أيُّكُم أحسَنُ عَمَلاً** ﴾ [**الملك** : ٢] .

وَجَعَلَ مَا عَلى الأرضِ زِينَةً لَها ليختبِرَهمُ أيُّهُم أحسَنُ عَمَلاً ، قال اللَّه تعالى :

﴿ **إنَّا جَعَلنا مَا عَلَى الأرضِ زِينَةً لَها لِنَبلُوَهمُ أيُّهُم أحسَنُ عَمَلاً** ﴾ [**الكهف** : ٧] .

وهذا هوَ المَذكور في قوله تعالى : ﴿ **فَمن كانَ يَرجو لِقَاءَ رَبِّهِ فَليَعمَل عَمَلاً صَالحَاً ولا يُشرِك بِعِبادَةِ رَبِّهِ أحَداً** ﴾ [**الكهف** : ١١٠] .

وفي قوله : ﴿ **وَمَن أحسَنُ دِيناً مِمَّن أسلَمَ وَجهَهُ للّه وَهوَ مُحسِنٌ** ﴾ [**النِّساء** : ١٢٥] .

فَلا يَقبَلُ اللَّه مِنَ العَمَل إلاَّ مَا كَانَ خَالِصاً لوجهِه، عَلى مُتَابعة أمرِه، وَمَا عَدَا ذلكَ فَهوَ مَردُودٌ على عامِله، يُرَدُّ عليه - أحوَج ما هوَ إليهِ - هَبَاءً مَنثُوراً .

وَفي « الصَّحيح »[1] من حديث عائشة عن النَّبيِّ ﷺ :

« كُلُّ عَمَلٍ لَيسَ عَلَيهِ أمرُنَا فَهوَ رَدٌّ » .

وَكُلُّ عَمَلٍ بِلا اقتِدَاء فإنَّهُ لا يَزيدُ عَامِلَه مِنَ اللَّه إلاَّ بُعداً، فإنَّ اللَّه تعالى إنَّمَا يُعبَدُ بأمرِهِ، لا بالآرَاءِ وَالأهوَاءِ .

الضَّرْبُ الثَّاني : مَن لا إخلاصَ لهُ وَلا مُتَابَعة، فَلَيسَ عَمَلُه مُوَافقاً للشَّرعِ، وَلَيسَ هوَ خَالصاً للمَعبُود، كَأعمَال المُتَزيِّنينَ للنَّاسِ، المُرَائينَ لَهُم بِمَا لَم يَشرَعْهُ اللَّه وَرسُولُه، وَهَؤُلاء شِرَارُ الخَلق، وَأمقَتُهُم إلى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، وَلَهُم أوفَرُ نَصيبٍ مِن قَولِه : ﴿ **لا تَحسَبَنَّ الَّذينَ يَفرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أن يُحمَدوا بِمَا لَم يَفعَلوا فَلا تَحسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِنَ العَذَابِ وَلَهُم عَذَابٌ أليمٌ** ﴾ [آل عمران : ١٨٨] .

يَفرَحُونَ بِمَا أتَوا مِن البِدعة وَالضَّلالة وَالشِّرك، وَيُحِبُّونَ أن يُحمَدُوا باتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَالإخلاصِ .

---

(١) أخرجَهُ البخاري (٥ / ٣٠١ - فتح) ، ومسلم (١٢ / ١٦ - نَوَوي) .

وَهذا الضرْبُ يَكثُرُ فيمَن انحَرفَ - منَ المُنتَسبينَ إلى العِلمِ وَالفَقرِ وَالعِبادَةِ - عَن الصرَاطِ المُستَقيم، فإنَّهُم يَرتَكِبُونَ البِدَعَ وَالضلالات، وَالرِّيَاءَ وَالسُّمعَةَ وَيُحِبُّونَ أن يُحمَدوا بِمَا لَم يَفعَلوا مِنَ الاتِّبَاعِ وَالإخلاصِ وَالعِلمِ، فَهُم أهلُ الغَضَبِ وَالضلالِ[1].

الضرْبُ الثَّالث : مَن هوَ مُخلصٌ عي أعمَالهِ، لكِنَّها عَلى غَيرِ مُتَابَعة الأمْرِ، كَجُهَّال العُبَّادِ، وَالمُنتَسِبينَ إلى طَريقِ الزُّهدِ وَالفَقرِ، وَكُلِّ من عَبَدَ اللَّه بِغَيرِ أمرِهِ، وَاعتَقَدَ عِبادَتَهُ هذهِ قُربَةً إلى اللهِ فَهذا حَالهُ :

كَمَن يَظُنُّ أنَّ سَمَاعَ المُكَاءِ وَالتَّصدِيَةِ قُربَةٌ، وَأنَّ الخُلوَةَ الَّتي يُترَكُ فيها الجُمعَةُ وَالجَماعَة قربَةٌ، وَأنَّ مُواصَلَة صَوم النَّهار باللَّيل قُربَةٌ، وَأنَّ صِيَامَ يَومِ فِطرِ النَّاسِ قُربَةٌ، وَأمثَالُ ذلكَ .

الضرِبُ الرَّابع : من أعمَاله على مُتَابَعَةِ الأمر، لَكِنَّها لِغَيرِ اللَّه، كَطَاعة المُرائينَ، وَكالرَّجُل يُقَاتِل رِيَاءً وَحَمِيَّةً وَشَجَاعةً، وَيَحُجُّ ليقال، وَيَقرأ القُرآن ليُقال[2]، فَهؤلاء

---

(١) وَانظُر لِزَاماً رسالتي : « الرِّيَاء : ذَمُّهُ وَأثَرُهُ السَّيِّءُ في الأُمَّةِ » نَشر دار ابن الجوزي .

(٢) وَانظُر رسالتي السَّابِقة .

أعمَالُهم ظَاهِرُها أعمَالٌ صَالحَةٌ مأمورٌ بها، لكِنَّها غَيرُ صَالحة، فَلا تُقبَل : ﴿ **وَمَا أُمِروا إلَّا لِيَعبُدوا اللَّهَ مُخلِصين لَهُ الدِّينَ** ﴾ [البينة : ٥] .

فَكُلُّ أحَدٍ لَم يُؤمَر إلَّا بِعِبَادَة اللَّه بِمَا أَمَر، وَالأخلاصُ لَهُ بالعِبَادَةِ » أ . هـ[١] .

فإذا كانَت هذهِ حقيقةُ العُبُوديَّةِ وَحَالُ النَّاسِ مَعَها، **فَكَيفَ نُحَقِّقُ العُبُوديَّةِ ؟**

(١) « مَدَارج السَّالكين » (١ / ٨٣ - ٨٥) بتصرّفٍ وزيَادةٍ .

كَيفَ نُحَقّق العُبُوديّة ؟

عَلِمتُم إخواني أنَّ العُبُودِيَّة غَايَة العبَاد الَّتي خُلِقوا لَها، فَمَا هيَ الوَسيلة إلَيها ؟

١ – طَلَبُ الإعَانَةِ منَ اللَّه .

إذا كانَت العُبُودِيَة للَّه غَاية العَبد وَنِهَاية مُرَادِهِ تَوَجَّهَ إلى اللَّه أن يُعِينَهُ عَلَيها، وَيُوَفِّقَهُ للقِيام بِحقِّها، وَلهذا كانَ مِن أفضَل مَا يسأل اللَّه عَزَّ وَجَلَّ : الإعَانَةَ عَلى مَرضَاتِهِ، وَلذلك عَلَّم النَّبيُّ ﷺ حِبَّهُ مُعاذ بن جَبَل رضي اللَّه عنه، فقال :

« يا مُعَاذ وَاللَّه إنِّي لأُحِبُّكَ فَلا تَنسَ أن تَقُولَ في دُبرِ كُلِّ صَلاة : اللَّهمَّ أعِنِّي عَلى ذِكرِكَ، وَشُكرِكَ، وَحُسنِ عِبَادَتِكَ »[١] .

وَاعلَم أيُّها العَبدُ أنَّكَ إذا التَزَمتَ عُبُودِيَّتَهُ، وَدَخَلتَ تَحتَها أعَانَكَ عَلَيها، فَكَانَ دُخُولُكَ فيها سَبَباً لنَيلِ الإعَانَةِ

---

(١) صحيح كَمَا بيَّنتُهُ في : « صحيح كتاب الأذكَار وَضَعيفه » (٨٩١ / ٦٧٥) .

عَلَيها، وكُلَّمَا كانَ العَبدُ أتَمَّ عُبُودِيَّةً كانَت الإعَانَةُ منَ اللَّه لَهُ أعظَم .

وَالعُبُودِيَّةُ مَحفُوفَةٌ بإعَانَتَينِ : إعانةٍ قَبلَها على التزَامها وَالقيام بِها، وَإعانةٍ بَعدَها عَلى الثَّبَاتِ عَلَيها وَالقيامِ بِعبُوديَّةِ غَيرِها، وَهَكَذا أبَدَاً مَا دُمتَ للَّه عَبداً .

وَمَن تَدَّبَرَ هذا المَقَام وَجَدَهُ أنفَع الدُّعَاء بَل إنَّ مَدَار الدُّعَاء المَأثُور عَلَيهِ، وَهوَ مُرَادُ اللَّه في أُمِّ الكِتَابِ : ﴿ **إيَّاكَ نَعبُدُ وَإيَّاكَ نَستَعين** ﴾ .

٢ – الاصطِبَارُ عَلى العُبُودِيَّة .

يا قَوم مَن كَانت غَايَتُهُ اللَّه كَانت هِمَّتُهُ عَالِيَة فَهوَ يَحشُدُ هَمَّهُ، وَيُعَبِّىءُ طَاقَاتِه، وَيُجَرِّدُ نَفسَهُ؛ لِيَرتَقي إلى مَقَامِ المُثُولِ بينَ يَدَي مَعبُودِهِ بحقٍّ الَّذي يُحِبُّه وَيَخضَعُ لَهُ، وَيُعالجُ عَثَرَات الطَّريق؛ لِيَثبُت في هذا المُرتَقى العالي ... إنَّها مَشَقَّةٌ : مَشَقَّةُ التَّجَمُّع وَالحَشدِ وَالتَّجَرُّد من كُلِّ شَاغِلٍ ... وَإنَّها لَلَذَّة لا يَعرِفُها إلاَّ مَن ذَاقَ طَعمَها وَوَجَدَ حَلاوتَها ... وَلكن لا تُنَالُ إلاَّ بِمَشَقَّة ... فإذا تَجَاوَزَت تِلكَ المَشَقَّة مَنَحَتكَ عطرَها فَتَنَسَّمَت عَرْفَها، وَكُنتَ مِن أهلِها .

قال اللَّه تعالى : ﴿ **فَاعبُدهُ وَاصطَبِر لِعِبَادَتِهِ** ﴾ [مريم : ٦٥] .

وقال : ﴿ وَأْمُر أَهلَكَ بالصَّلاةِ وَاصطَبِر عَلَيها ﴾ [طه : ١٣٢] .

وَالعُبُودِيَّةُ في الإسلام تَنتَظِم كُلَّ نَشَاطٍ، وَكُلَّ حَرَكَةٍ، وَكُلَّ خَلجَةٍ، وَكُلَّ نيَّةٍ، وَكُلَّ اتِّجاهٍ ... وَإنَّها لَمَشَقَّةٌ أن يَتَّجِه العَبدُ في هذا كُلِّهِ إلى اللّه وَحدَهُ دونَ غيره ... مَشَقَّةٌ تَحتَاجُ إلى اصطِبَار ... وَطَريقٌ يَحتَاجُ إلى مُجاهَدَةٍ، لِيَخلُصَ القَلبُ مِن أوشَابِ الهَوى، وَنَزَغَاتِ الشَّيطَانِ والنَّفسُ من شرورِها ... وَلكِن مَن زَرَعَ الإخلاصَ حَصَدَ النَّجَاةَ، وَمَن بَذَرَ الاتِّبَاع جَنى السَّدَاد في القَولِ وَالعَمَلِ، وَمَن حَفظَ اللّه حَفِظَهُ اللّه ووَجَدَهُ تُجاهَهُ .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذينَ جَاهَدوا فينا لَنَهدِيَنَّهُم سُبلَنا وَإنَّ اللَّهَ لَمَعَ المُحسِنينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وَلهذا المَقَام يُشيرُ الرَّسول عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام :

« حُجِبَت النَّارُ بالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَت الجَنَّةُ بالمَكَارِه »[1] .

فالجَنَّةُ مَحجُوبَةٌ بالمَكَارِه مَحفُوفَةٌ بِها؛ وَالمَكَارِه ما

---

(١) أخرَجَهُ البخاري (١١ / ٣٢٠ – فتح)، وَمسلم (٢٨٢٣) مِن حديث أبي هريرة . وأخرَجهُ مسلم (٢٨٢٢) من حديث أنسٍ بلفظ : « حُفَّت ... » الحَديث .

أُمِرَ المُكَلَّفُ بِمُجَاهَدَةِ نَفسِهِ فيهِ فِعلاً وتَركاً كالإِتيانِ بالعِبَادَات على وَجهِهَا، وَاجتِنَابِ المَنهِيَّاتِ قَولاً وَفعلاً، وأُطلِقَ عَلَيها المَكَارِهِ لِمَشقَّتِها عَلَ العَامِلِ، وَصُعُوبَتِها عَلَيهِ، وَلَكن عَاقِبَتَها أحلى منَ العَسَلِ، وَلله دَرُ القَائل :

لا تَحسَبَنَّ المَجدَ تَمراً أنتَ آكِلُهُ
لَن تَبلُغَ المَجدَ حَتَّى تَلعَقَ الصَّبرا

وَصَدَقَ القَائِل :

وَالصَّبرُ مُرٌّ مَذَاقُـــهُ كاسِمِـهِ
لَكِن عَوَاقِبَه أحلى مِنَ العَسَلِ

٣ - مُرَاقَبَة اللّه .

وَهذا مَقَامُ الإحسَانِ وَإِلَيهِ أشَارَ رَسول اللّه ﷺ في حديث جبريل الطَّويل عندَما سَألَهُ عن الإحسَان قال :

« أن تَعبُد اللّه كَأنَّكَ تَرَاهُ، فإن لَم تَكُن تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ »(١)

قال الحافظ ابن رَجَب الحنبلي رحمه اللّه :

« يُشيرُ إلى أنَّ العَبدَ يَعبُدُ اللّه تَعالى عَلى هذِهِ الصِّفَة، هُوَ استِحضَارُ قُربه، وَأنَّهُ بينَ يَدَيهِ كَأنَّهُ يَرَاهُ، وَذلكَ يُوجِب

---

(١) مَضى تخريجه (ص ١٥) .

الخَشيَة وَالخَوف وَالهَيْبَة وَالتَّعظِيم، كَمَا جَاءَ في رواية أبي هريرة : « أن تَخشَ اللَّه كَأَنَّكَ تَرَاهُ » .

وَيَجِبُ أيضاً النُّصحُ في العِبَادَة وَبَذلُ الجُهد في تَحسينِها وَإتمَامِها وَإكمَالِها .

وَقوله ﷺ : « فإن لَم تَكُن تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ »؛ قيل : إنَّهُ تَعليلٌ للأوَّل، فإنَّ العَبدَ إذا أُمِرَ بمُرَاقَبَةِ اللَّه تعالى في العِبَادَةِ وَاستِحضَار قُرْبِهِ من عَبدِهِ حَتَّى كَأنَّ العَبدَ يَرَاه، فإنَّهُ قَد يَشُقُّ ذلكَ عَلَيهِ، فيَستَعينُ على ذلكَ بإيمَانِهِ بأنَّ اللَّه يَرَاهُ وَيَطَّلع على سِرِّهِ وَعَلانيتِه، وَبَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ، وَلا يَخفى عَلَيهِ شَيءٌ من أمرِهِ، فإذا تَحقَّقَ هذا المَقَامُ؛ سَهُلَ عَلَيهِ الانتِقَالُ إلى المَقَامِ الثَّاني، وَهوَ : دوَامُ التَّحقيق بالبَصيرَة إلى قُرب اللَّه من عَبدِهِ وَمَعِيَّتهُ حَتَّى كَأنَّهُ يَرَاهُ » أ . هـ[1].

قال ابن قيِّم الجَوزيَّة رحمهُ اللَّه :

« فَصَاحِبُ هذا المَقَام :

كَأنَّهُ يَرى رَبَّهُ سُبحَانَهُ فَوقَ سَماوَاتِه عَلى عَرشِهِ، مُطَّلِعاً عَلى عِبَادِهِ، نَاظِراً إليهم، يَسمَعُ كَلامَهُم، وَيَرى ظَوَاهِرَهمُ وَبَوَاطِنَهُم .

---

(١) « إيقَاظ الهِمَم المُنتَقى مِن جَامع العُلُوم وَالحِكَم » (ص ٧١ – ٧٢) بتحقيقي نشر دار ابن الجوزي .

وَكَأَنَّهُ يسمَعهُ وَهوَ يَتَكَلَّمُ بالوَحي، وَيُكَلِّمُ بِهِ عَبدَهُ جبريلَ، وَيَأمُرهُ وَيَنهَاهُ بِمَا يُريدُ، وَيُدَبِّر أمرَ المَملَكَةِ، وَأملاكُه صَاعِدَةٌ إلَيهِ بالأَمرِ، نَازِلَةٌ مِن عِندِهِ بِه .

وَكَأَنَّهُ يُشَاهِدُهُ وَهوَ يَرضَى وَيَغضَبُ، وَيُحِبُّ وَيبغضُ، وَيُعطِي وَيَمنَع، وَيَضحَكُ وَيَفرَحُ، وَيُثني عَلَى أولِيائهِ بينَ مَلائِكَتِهِ، وَيَذُمُّ أعدَاءَهُ .

وَكَأَنَّهُ يُشَاهِدُهُ وَيُشَاهِدُ يَدَيهِ الكَرِيمَتَينِ، وَقَد قَبَضَت إحداها السَّمَاوَاتِ السَّبع، وَالأُخرى الأَرضِينَ السَّبع، وَقَد طَوى السَّمَاوَاتِ السَّبع بِيمِينِهِ، كَمَا يُطوي السِّجِلُ عَلَى أَسطُر الكِتَاب .

وَكَأَنَّهُ يُشَاهِدُهُ وَقَد جَاءَ لفصلِ القَضَاء بينَ عِبَادِهِ، فأَشرَقَت الأَرضُ بِنُورِهِ، وَنَادى - وَهوَ مُستَوٍ عَلَى عَرشِهِ - بِصَوتٍ يَسمَعهُ مَن بَعُدَ كَمَا يَسمَعهُ مَن قَرُب : « وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا يُجَاوِزني اليَومَ ظلم ظالم » .

وَكَأَنَّهُ يَسمَع نِدَاءَهُ لآدَم : « يا آدَمُ قُم فَابعَث بَعث النَّارِ » بإذنِهِ الآنَ، وَكَذلكَ نَدَاءَهُ لأهلِ المَوقِف : ﴿ مَاذا أجبتُم المُرسلينَ ﴾ [القَصَص : ٦٥] وَمَاذا كُنتُم تَعبُدُونَ ؟

وَبالجملة فيُشَاهِد بِقَلبِهِ رَبّاً عَرَّفَت بِه الرُّسُل، كَمَا

عَرَّفَت بِهِ الكُتُب، وَدِيناً دَعَت إلَيهِ الرُّسُلُ، وَحَقَائِقَ أخبَرَت بِها الرُّسُل، فَقَامَ شَاهِدُ ذلكَ بِقَلبِهِ، كَمَا قَامَ شَاهِدُ مَا أخبَرَ بِهِ أهلُ التَّوَاتُرِ - وَإن لَم يَره - من البلاد وَالوَقَائِع، فَهذا إيمَانُهُ يَجري مَجرى العَيَان، وَإيمَانُ غيرِهِ فَمَحضُ تَقليدِ العُميَان »[1].

وَقَد انتَظَم مُفرَدَاتِ تَحقِيقِ العُبُودِيَّة تَوجِيهُ رسول اللَّه ﷺ لرَبيعة بن كَعبٍ الأسلَمِيِّ خَادِمه وَهوَ مِن أهلِ الصُّفَّةِ حيثُ قال :

كُنتُ أبيتُ مَعَ رسول اللَّه ﷺ فَآتِيهِ بوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فقال : « سَلني » .

فقلت : أسألُكَ مُرَافَقَتَكَ في الجَنَّةِ

فقال : « أو غيرَ ذلكَ ؟ » .

قلت : هوَ ذَاكَ .

قال : « فَأَعِنِّي عَلى نَفسِكَ بِكَثرَةِ السُّجُودِ »[2] .

وَبيَانُ ذلكَ :

أ - أنَّ رسول اللَّه ﷺ أمَرَهُ أن يُعِينَهُ عَلى نَفسِهِ، وَمَن أعَانَ عَلى نَفسِهِ لا شَكَّ أنَّ أوَّلَ مَا يطلب الإعَانة منَ اللَّه على

---

(١) « مَدَارج السَّالكين » (٣ / ١٥٣ - ١٥٤) .

(٢) أخرَجهُ مسلم (٤٨٩) .

نَفسِهِ فَمِنَ الدُّعَاء المَأثُور : وَلا تَكلني إلى نَفسي طَرفَةَ عَين، فَالعَبدُ بِحَاجَةٍ إلى عَونِ اللَّه على نَفسِهِ الَّتي بينَ جَنبَيهِ .

ولِلَّهِ دَرُّ القائِل :

إذا لَم يَكُن منَ اللَّهِ عَونُ الفَتى
فأَوَّلُ ما يَجني عليهِ اجتِهَادُهُ

ب - قوله : « عَلى نَفسِكَ » فيهِ بيَان أنَّها مُتَخَلِّفَة بِطَبعِها عن السَّعي إلى المَعَالي، فَلذلكَ فَهيَ بِحَاجَةٍ إلى مُجَاهَدَةٍ وَاصطِبَارٍ عَلى العِبَادَةِ كَي لا تَتَخَلَّف عن قَافِلَة العَابِدِينَ .

ت - وَقوله : « بِكَثرَة السُّجُود »، فمن كَثرَة سُجُودِهِ حَصلَت لَهُ مَرتَبَة القُرب المُشَار إلَيهِ بقول اللَّه تعالى : ﴿ وَاسجُد وَاقتَرِب ﴾ [العلق : ١٩] .

وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « أقرَبُ مَا يَكُونُ العَبدُ مِن رَبِّهِ وَهوَ سَاجِدٌ فَأكثِروا الدُّعَاءَ »[١] .

وعن عبداللَّه بن عبَّاسٍ رضي اللَّه عنهما أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « فَأمَّا الرُّكوعُ فَعَظِّموا فيهِ الرَّبَّ وَأمَّا السُّجودُ

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢)

فَاجتَهِدُوا في الدُّعَاء فَقَمِنٌ[1] أن يُستَجَابَ »[2]

فَالسُّجُود مِن مَوَاطِن إجَابَة الدُّعَاء[3] ؛ فَدَلَّهُ رسولُ اللَّه ﷺ عَلى مَوَاطِنِ الإجَابَةِ ، وَأَمَرَهُ أن يُدمِن قَرعَ البَاب ، وَعَلَّمَهُ كَيفَ يَقرَع البَاب ، فَمَن كَانَت هذهِ صِفَتُه أوشَكَ أن يُفتَحَ لَهُ ، وَاللَّه المُستَعَان .

---

(١) أي : جَديرٌ وَحَقيقٌ .

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٥) .

(٣) وانظُر لِزاماً كتابي : « النُّبَذُ المُستطَابَةُ في الدَّعواتِ المُستَجابَةُ » .

مَنازلُ العُبُوديّة

قال ابن قَيِّم الجَوزِيَة رحمه اللَّه :

« أهلُ العُبُودِيَّةِ لهم في أفضَلِ العِبَادَةِ وَأنفَعِها وَأحَقِّها بالإيثَار وَالتَّخصيصِ أربَعُ طُرُقٍ؛ فَهُم في ذلك أربَعَةُ أصنَاف :

الصِّنفُ الأوَّل : عندهُم أنفَعُ العبَادَاتِ وَأفضلُها : أشقُّها عَلى النُّفُوسِ وَأصعَبُها .

قالوا : لأنَّه أبعَد الأشياءِ عَن هَواها، وَهو حَقيقةُ التَّعَبُّدِ .

وَرَووا حَديثاً لا أصلَ لَهُ : « أفضَلُ الأعمَالِ أحمَزُها »[1] أي : أصعَبُها وَأشقُّها .

وَإنَّمَا تَستَقِيمُ النُّفُوسُ بِذلكَ، إذ طَبعُها الكَسَلُ

---

(١) وَهوَ كَمَا قال ابن قَيِّم الجوزية رحمه الله، وَأقرَّهُ القَاري في « المَصنُوع » (٣٣) وَ « الأسرارُ المَرفُوعَة » (٢٠٨) .

وَهوَ مَا حَطَّ عَليهِ قَولُ المُحَقِّقينَ كَمَا بيَّنتُهُ في كتابي : « سلسلة الأحَاديث الَّتي لا أصلَ لَها » .

وَالمَهَانَةُ، وَالإخلادُ إلى الأرضِ، فَلا تَستَقِيمُ إلاَّ بركُوبِ الأهوَالِ وَتَحمُّلِ المَشَاقِّ .

والأجرُ عَلى قَدرِ المَشقَّةِ .

وَهؤلاءِ هُم أهلُ المُجَاهَداتِ وَالجَورِ عَلى النُّفُوسِ .

الصِّنفُ الثَّاني : عندَهمُ أفضَلُ العِبَادَات : التَّجَرُدُ، وَالزُّهد في الدُّنيا، وَالتَّقلُّلُ مِنها غَاية الإمكَان، وَإطراحُ الاهتِمَام بِها، وَعَدَمُ الاكتِرَاث بِكُلٍّ مَا هوَ مِنها .

ثُمَّ هَؤُلاءِ قِسمَانِ :

فَعَوَامُّهم : ظَنُّوا أنَّ هذا غَايَة، فَشَمَّروا إلَيهِ، وَعَملوا عَلَيهِ، وَدَعوا النَّاسَ إلَيهِ، وَقالوا : هوَ أفضَلُ مِن دَرَجَة العِلمِ وَالعِبَادَةِ، فَرَأوا الزُّهدَ في الدُّنيا غَايَةَ كُلِّ عبَادَة وَرأسَهَا .

وَخَوَاصُّهُم : رَأوا هذا مَقصُوداً لغَيرِهِ، وَأنَّ المَقصُودَ بِه عُكُوفُ القَلبِ على اللَّه، وَجَمعُ الهِمَّةِ عَلَيهِ، وَتَفريغُ القَلبِ لمَحَبَّتِهِ، وَالإنَابَةِ إلَيهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيهِ، وَالاشتِغَالِ بِمَرضاتِهِ، فَرَأوا أنَّ أفضَلَ العِبَادَاتِ في الجَمعِيَّةِ عَلى اللَّه، وَدَوَامِ ذِكرِهِ بالقَلبِ وَاللِّسَانِ، وَالاشتِغَال بِمُرَاقبَتِه، دُونَ كُلِّ مَا فيهِ تَفريقٌ للقَلبِ وَتَشتيتٌ لَهُ .

ثُمَّ هَؤُلاءِ قِسمَانِ :

فالعَارِفُونَ المُتَّبِعُونَ مِنهُم : إذا جَاءَ الأمرُ وَالنَّهيُ بَادَرُوا

إلَيهِ وَلَو فَرَّقَهُم وَأذهَبَ جَمعِيَّتَهُم .

والمُنحَرِفُونَ مِنهُم يَقولونَ : المَقصُودُ مِنَ العِبَادةِ جَمعِيَّةُ القَلبِ على اللّه، فإذا جَاءَ ما يُفَرِّقُه عَنِ اللّه لَم يَلتَفت إلَيهِ، وَرُبَّمَا يَقُول قَائلهُم :

يُطَالَبُ بالأَورَادِ مَن كَانَ غَافِلاً
فَكَيفَ بِقَلبٍ كُلُّ أوقَاتِهِ وِردٌ ؟

ثُمَّ هَؤُلاءِ قِسمَانِ :

منهُم مَن يَترُكُ الوَاجِبَاتِ وَالفَرَائِضَ لِجَمعيَّتِه .

ومِنهُم مَن يَقُومُ بِها، وَيَترُكُ السُّنَنَ وَالنَّوَافِلَ، وَتَعَلُّمَ العِلمِ النَّافِعِ لجَمعيَّتِه .

الصِّنفُ الثَّالث : رَأَوا أنَّ أنفَعَ العِبَادَاتِ وَافضَلها : مَا كانَ فيهِ نَفعٌ مُتَعَدٍّ، فَرَأَوا أفضَل مِن ذِي النَّفع القَاصِرِ، فَرَأَوا خِدمَة الفُقَراءِ، وَالاشتِغَالِ بِمَصَالِحِ النَّاسِ، وَقَضَاءِ حَوَائِجِهم، وَمُسَاعَدَتِهم بالمَالِ وَالجَاهِ وَالنَّفعِ أفضَل، فَتَصَدَّوا لَهُ، وَعَمِلوا عَلَيهِ .

وَاحتَجُّوا بقَولِ النَّبيِّ ﷺ :

« الخَلقُ كُلُّهُم عِيَالٌ عَلى اللّه، وَأحَبُّهُم إلَيهِ أنفَعهم لعِيَاله »[1].

---

(١) هوَ حديثٌ ضعيفٌ كمَا بيَّنَهُ شيخُنا حفظهُ اللّه في « الضَّعيفَة » =

وَبقوله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : « لأن يَهدي اللّه بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيرٌ لَكَ من حُمرِ النَّعَم »[1].

وبقوله ﷺ : « مَن دَعَا إلى هُدى كانَ لهَ منَ الأجرِ مثل أُجُورِ مَن اتَّبعهُ من غَير أنْ يَنقُصَ مِن أُجُورِهم شَيءٌ »[2].

وَبقوله ﷺ : « إنَّ اللّه وَمَلائِكَتهُ يُصَلُّونَ عَلى مُعَلِّمي النَّاسِ الخَيرَ »[3].

وبقوله ﷺ : « إنَّ العالم لَيستَغفِر لهَ مَن في السَّمَاوَاتِ وَمَن في الأرضِ حَتَّى الحِيتَانُ في البَحرِ، وَالنَّملَةُ في جُحرِها »[4].

وَهذا التفضيلُ إنَّمَا هوَ للنَّفع المُتَعَدِّي .

وَاحتَجُّوا بأنَّ عَمَل العَابِدِ قَاصِرٌ على نَفسِهِ، وَعَمَلَ

=

(١٩٠٠) ثُمَّ قال : وَقَد ثَبَتَ الشَّطرُ الثاني من حديث بلفظ : « خَيرُ النَّاس أنفَعُهُم للنَّاس » وَهوَ مخرَّج في « الصَّحيحة » (٤٢٧) .

(١) أخرجه البخاري (٧ / ٧٠ - فتح)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سَعد رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) جزء من حديث صحيح أخرجَه الترمذي (٢٦٨٥) من حديث أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه .

(٤) صحيح - أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه .

النَّفَاع مُتَعَدٍّ إلى الغيرِ، وَأينَ أحَدُهُما من الآخَر ؟ .

وَبأنَّ صاحِبَ العِبَادَةِ إذا مَاتَ انقَطَعَ عَمَلُهُ، وَصَاحِبُ النَّفعِ لا يَنقَطِع عَمَلُه، ما دامَ نَفعُهُ الَّذي نُسِبَ إلَيهِ .

وبأنَّ الأنبيَاءَ إنَّمَا بُعِثُوا بالإحسَانِ إلى الخَلقِ وَهِدَايَتِهِم، وَنَفعِهِم في مَعَاشِهِم وَمَعَادِهِم، وَلَم يُبعَثُوا بالخلواتِ والانقِطَاعِ عن النَّاسِ وَالتَّرهبِ، وَلِهذا أنكَرَ النَّبيُّ ﷺ على أُولئِكَ النَّفَر الَّذينَ هَمُّوا بالانقِطَاعِ للتَّعبُدِ، وَتَركِ مُخَالطَةِ النَّاسِ،[1] وَرَأى هَؤُلاءِ التَّفَرُّقَ في أمرِ اللَّه، وَنَفع عِبَادِهِ وَالإحسَانِ إلَيهِم، أفضَلَ مِن الجَمعِيَّة عَليهِ بدُونِ ذلكَ .

قالوا : ولهذا كانَ فَضلُ العَالم عَلى العَابِد كَفَضلِ القَمَرِ على سَائرِ الكَوَاكِبِ .

الصِّنفُ الرَّابع : رَأَوا أنَّ أفضَلَ العِبَادَةِ : العَمَلَ على مَرضَاةِ الرَّبِّ في كُلِّ وَقتٍ بمَا هوَ مُقتَضى ذلكَ الوَقت وَوَظِيفَتُهُ .

فأفضَلُ العبَادَاتِ في وَقت الجهَادِ : الجِهَادُ، وَإن آلَ إلى تَركِ الأورَادِ من صَلاةِ اللَّيلِ وَصيَامِ النَّهَارِ، بَل وَمِن تَركِ إتمَامِ صَلاةِ الفَرضِ، كَمَا في حَالَةِ الأمنِ .

(١) يُشيرُ إلى ما أخرجهُ البخاري (٩ / ١٠٤ - فتح)، وَمسلم (٩ / ١٧٥ - ١٧٦ - نووي) من حديث أنس بن مالك رضي اللّٰه عنه .

وَالأفضَلُ وَقتُ حُضُورِ الضيَفِ مَثَلاً : القِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالاشتِغَالُ بِهِ عَن الوِردِ المُستَحَبِّ، وَكَذلكَ في أَدَاءِ حَقِّ الزَّوجَةِ وَالأهلِ .

وَالأفضَلُ في أوقَاتِ السَّحرِ : الاشتِغَالُ بالصَّلاةِ وَالقُرآنِ، وَالدُّعَاءُ وَالذِّكرُ وَالاستِغفَارُ .

وَالأفضَل في وَقت اشتِرشَاد الطَّالب وتَعليم الجَاهِل : الإقبَالُ على تَعليمهِ وَالاشتِغَالُ به .

وَالأفضَلُ في أوقَاتِ الأذَانِ : تَركُ مَا هوَ فيهِ مِن وِردٍ، وَالاشتِغَالُ بإجَابَة المُؤَذِّنِ .

وَالأفضَلُ في أوقَاتِ الصَّلوَاتِ الخَمسِ : الجِدُّ وَالنُّصحُ في إيقَاعِها على أكمَلِ الوجوه، وَالمُبَادَرَةُ إلَيها في أوَّلِ الوَقتِ، وَالخُرُوجُ إلى الجامِع، وَإن بَعدَ كَانَ أفضَل .

وَالأفضَلُ في أوقَاتِ ضَرُورَة المُحتَاج إلى المُسَاعَدَةِ بالجَاهِ، أو البَدَنِ، أو المَالِ : الاشتِغَالُ بِمُسَاعَدَتِه، وَإغَاثَةُ لَهفَتِه، وَإيثَارُ ذلكَ على أورَادِكَ وَخُلوَتِكَ .

وَالأفضَلُ في وَقت الوُقُوف بِعَرَفَة : الاجتِهَادُ في التَّضَرُّعِ وَالدُّعَاءِ وَالذِّكرِ دُونَ الصَّومِ المُضعِفِ عن ذلكَ .

وَالأفضَل في أيَّام عَشر ذي الحجَّة : الإكثَارُ من التَّعَبُّدِ، لا سِيَّمَا التَّكبيرُ وَالتَّهليلُ وَالتَّحميدُ، فَهوَ أفضَلُ منَ

الجِهَادِ غَير المُتَعَيِّنِ .

وَالأفضَلُ في العَشر الأوَاخِر مِن رَمَضَان : لُزُوم المَسجِد فيهِ وَالخُلوَةُ وَالاعتِكَاف دُونَ التَّصَدِّي لمخَالطَة النَّاس وَالاشتِغَال بِهم، حَتَّى أنَّهُ أفضَلُ مِنَ الإقبَالِ على تَعليمِهِم العِلم، وَإقرَائِهِم القُرآن، ، عندَ كَثيرٍ منَ العُلَمَاء .

وَالأفضَلُ في وَقتِ مَرضِ أخِيكَ المسلم أو مَوتِه : عِيَادتُه، وَحُضُور جَنَازَتهِ وَتَشيِعُه، وَتَقديم ذلكَ على خُلوَتِكَ وَجُمعِيَّتِكَ

وَالأفضَلُ في وَقت نُزُول النَّوَازِل وَأَذَاةِ النَّاسِ لَكَ : أدَاءُ وَاجِبِ الصَّبرِ مَع خُلطَتِكَ بِهم، دُونَ الهَرَب مِنهم، فإنَّ المُؤمِنُ الَّذي يُخَالِطُ النَّاسَ ليَصبِرَ على أذَاهُم أفضَل منَ الَّذي لا يُخَالطهُم وَلا يُؤذُونَه .

وَالأفضَلُ خُلطَتُهم في الخَيرِ، فَهيَ خَيرٌ من اعتِزَالِهم فيهِ، وَاعتزالُهُم في الشَّرِّ، فَهوَ أفضَل مِن خُلطَتِهِم فيهِ، فإن عَلِمَ أنَّهُ إذا خَالَطَهُم أزَالَهُ أو قَلَّلَهُ فَخُلطَتُهُم حينَئِذ أفضَلُ من اعتزَالِهم .

فالأفضَلُ في كُلِّ وَقتٍ وَحَالٍ : إيثَارُ مَرضَاةِ اللَّه في ذلكَ الوَقتِ وَالحَالِ، وَالاشتِغَالُ بِوَاجِبِ ذلكَ الوَقتِ وَوَظيفتِه وَمُقتَضَاهُ .

وَهَؤُلاءِ هُم أهلُ التَّعَبُّد المُطلَق، وَالأصنافُ قبلَهُم أهلُ التَّعَبُّدِ المُقيَّدِ، فَمَتى خَرَجَ أحدُهُم عَن النَّوعِ الَّذي تَعَلَّقَ بِهِ من العِبَادَةِ وَفَارَقَهُ يَرى نَفسَهُ كَأنَّهُ قَد نَقَصَ وَتَرَكَ عبادَته، فَهوَ يَعبُد اللَّه على وَجهٍ وَاحِدٍ، وَصَاحِبُ التَّعَبُّدِ المُطلَقِ لَيسَ لَهُ غَرَضٌ في تَعبُّدٍ بِعَينِه يُؤثِرُهُ على غَيرِهِ، بَل غَرَضُه تَتَبُّع مَرضَاةِ اللَّه تعالى أينَ كانَت ، فَمَدَارُ تَعَبُّدِهِ عَلَيها، فَهوَ لا يَزَالُ مُتَنَقِّلاً في مَنَازِلِ العُبُودِيَّةِ، كُلَّمَا رُفِعَت لَهُ مَنزِلَةٌ عَمَلِ على سَيرِهِ إلَيها، وَاشتَغَلَ بِها حَتَّى تَلُوحَ لَهُ مَنزِلَةٌ أُخرى، فَهذا دَأبُهُ في السَّيرِ حَتَّى يَنتَهي سَيرُه، فإن رَأيتَ العُلَمَاءَ رَأيتَهُ مَعَهُم، وَإن رَأيتَ العِبَادَ رَأيتُ مَعَهُم، وَإن رَأيتَ المُجَاهِدينَ رَأيتَهُ مَعَهُم، وَإن رَأيتَهُ الذَّاكِرينَ رَأيتَهُ مَعَهُم، وَإن رَأيتَ المُتَصَدِّقينَ رَأيتَهُ مَعَهُم .

فَهذا هوَ العَبدُ المُطلَقُ، الَّذي لَم تَملِكهُ الرُّسُومُ، وَلَم تُقَيِّدْهُ القُيُودُ، وَلَم يَكُن عَمَلُهُ على مُرادِ نَفسِهِ، وَمَا فيهِ لَذَّتُها وَرَاحَتُها منَ العِبَادَاتِ، بَل هوَ على مُرادِ رَبِّهِ، وَلَو كَانت رَاحَةُ نَفسِهِ وَلَذَّتُها في سَوَاهُ، فَهذا هوَ المُتَحَقِّقُ بالعُبُودِيَّةِ حَقّاً، القَائِم بِها صِدقاً، مَلبَسُهُ ما تَهَيأ، وَمَأكلُه ما تيسَّر، وَاشتِغَالُهُ بِمَا أمَرَ اللَّه بِهِ في كُلِّ وَقتٍ بِوَقتِهِ، وَمَجلِسُهُ حَيثُ انتَهى بِهِ المَكَانُ وَوَجَدَهُ خَالِياً، لا تَملُكهُ إشَارةٌ، وَلا يَتَعَبَّدهُ قَيدٌ، وَلا

يستولي عَلَيهِ رَسمٌ، حُرٌّ مُجَرَّدٌ دَائِرٌ مَعَ الأمرِ حَيثُ دَارَ، يَدينُ بِدينِ الآمرِ أنَّى تَوَجَّهت رَكَائبُهُ، وَيَدُور مَعهُ حيثُ استَقلَّت مَضَارِبُه، يَأنَسُ بِه كُلُّ مُحِقٍّ، وَيَستَوحِشُ منهُ كُلُّ مُبطِلٍ، كَالغَيثِ حَيثُ وَقَعَ نَفَعَ، وَكالنَّخلَةِ لا يَسقُطُ وَرَقُها، وَكُلُّها مَنفَعَةٌ حَتَّى شَوكُها، وَهوَ مَوضِعُ الغِلظَةِ مِنهُ على المُخالفينَ لأمرِ اللَّه، وَالغَضَبُ إذا انتُهِكَت مَحَارِمُ اللَّه، فَهوَ للَّه وَباللَّه وَمَعَ اللَّه، قَد صَحِبَ اللَّه بِلا خَلق، وَصَحِبَ النَّاس بلا نَفس، بَل إذا كانَ مَعَ اللَّه عَزَلَ الخَلائق عن البين، وَتَخلَّى عَنهُم، وَإذا كانَ مَع خلقِهِ عَزَلَ نَفسَهُ عَن الوَسَط وَتَخلَّى عَنها.

فواهاً لَهُ! ما أغرَبَهُ بينَ النَّاسِ! وَمَا أشَدَّ وَحشَتُهُ منهُم! وَمَا أعظَمَ أُنسُه باللَّه وَفَرحُهُ بِه! وَطُمَأنينَتُه وَسُكونُه إلَيهِ!! وَاللَّه المُستَعَان، وَعَلَيهِ التُّكلانُ» أ. هـ[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (١ / ٨٥ – ٩٠) باختصارٍ وتَصرفٍ.

قواعدُ العُبُوديّة

قال ابن قَيِّم الجَوزِية رحمه اللَّه :

« ورَحى العُبُودِيَّةِ تَقُومُ على خَمسَ عَشرَةَ قَاعِدَةً، مَن كَمَّلَها كَمَّلَ مَراتِبَ العُبُودِيَّة .

وَبيَانها : أنَّ العُبُودِيَّةَ مُنقَسِمَة على القَلبِ، وَاللِّسَانِ، وَالجَوَارِح، وَعلى كُلٍّ مِنها عُبُودِيَّةٌ تَخُصُّهُ .

وَالأحكَامُ الَّتي للعُبُودِيَّة خَمسة : وَاجِبٌ، وَمُستَحَبٌّ، وَحَرَامٌ، وَمَكرُوهٌ، وَمُبَاحٌ .

وَهي لِكُلٍّ وَاحِدٍ منَ القَلبِ، وَاللِّسَانِ، وَالجَوَارِحِ .

فَوَاجِبُ القَلب : كالإخلاصِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَالمَحَبَّةِ، وَالصَّبرِ، وَالإنَابَةِ، وَالخَوفِ، وَالرَّجَاءِ، وَالتَّصديقِ الجَازِم، وَالنِّيَةِ في العِبَادَةِ، وَهذِهِ قَدرٌ زَائدٌ على الإخلاصِ، فإنَّ الإخلاصَ هوَ إفرَادُ المَعبُودِ عَن غيرهِ، وَنيَّةُ العِبَادَةِ لها مَرتَبَتَانِ :

إحدَاهُمَا : تَمييزُ العِبَادَةِ عَن العَادَة .

والثَّانية : تَمييزُ مَرَاتِب العِبَادَات بَعضُها عَن بَعضٍ .

وَالأقسامُ الثلاثة وَاجِبةٌ .

وَكَذلكَ الصِّدقُ، وَالفَرقُ بينَهُ وَبينَ الإخلاصِ : أنَّ للعَبدِ مَطلوباً وَطَلَباً، فالإخلاصُ : تَوحيدُ مَطلوبِه، وَالصِّدقُ : تَوحيدُ طَلَبِه .

فالإخلاصُ : أن لا يَكُونَ المَطلُوبُ مُنقَسِماً، وَالصِّدقُ : أن لا يَكُونَ الطَّلَبُ مُنقَسِماً، فَالصِّدقُ بَذل الجُهد، وَالإخلاصُ إفرَادُ المَطلُوبِ .

وَاتَّفَقَت الأُمَّة على وُجُوب هذهِ الأعمَال على القَلب، مِن حَيثُ الجُملَةِ .

وَكَذلكَ النُّصحُ في العُبُودِيَّة، وَمَدَارُ الدِّينِ عَليهِ، وَهوَ بَذلُ الجُهدِ في إيقَاع العُبُودِيَّة على الوَجهِ المَحبُوبِ للرَّبِّ المَرضي لَهُ، وَأَصلُ هذا وَاجِبٌ، وَكَمَالُهُ مَرتَبَةُ المُقَرَّبينَ .

وَكَذلكَ كُلٌّ وَاحِدٍ من هذهِ الوَاجِبَات القَلبِيَّةِ لَهُ طَرَفَانِ :

وَاجِبٌ مُستَحقٌّ، وَهوَ مَرتَبَةُ أصحابِ اليَمين .

وَكَمَالٌ مستَحَبٌّ، وَهوَ مَرتَبَةُ المقَرَّبينَ .

وَكَذلكَ الصَّبرُ وَاجِبٌ باتِّفَاق الأُمَّةِ، وَكَذلكَ التَّوَكُّل، فقال : ﴿ **إن كُنتُم آمَنتُم باللّهِ فَعَلَيهِ تَوَكَّلُوا إن كُنتُم مُسلمينَ** ﴾ [**يونس** : ٨٤] .

وأمَرَ بالإنابَةِ، فقال : ﴿ وَأَنيبوا إلى رَبِّكُم ﴾ [الزمر : ٥٤] .

وأَمَرَ بالإخلاص كَقَولِهِ : ﴿ وَمَا أُمروا إلاَّ لِيَعبُدُوا اللَّهَ مُخلصينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] .

وكَذلكَ الخَوف كَقَوله : ﴿ فَلا تَخافُوهُم وَخافُونِ إن كُنتُم مُؤمنين ﴾ [آل عمران : ١٧٥] ، وقوله : ﴿ فَلا تَخشَوهُم وَاخشَونِ ﴾ [المائدة : ٣] ، وقوله : ﴿ وَإيَّايَ فَارهَبُونَ ﴾ [البقرة : ٤٠] .

وكَذلكَ الصِّدق، قال تعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقُوا اللَّهَ وكُونوا مَعَ الصَّادقينَ ﴾ [التوبة : ١٩] .

وكَذلكَ المحَبَّةُ، وَهيَ أفرضُ الوَاجِبَات، إذ هيَ قَلبُ العِبادَةِ المَأمُورِ بِها، وَمُخُّهَا وَروحُها .

وَالقَصد : أنَّ هذهِ الأعمَال هيَ عُبُودِيَّة القَلب، فَمَن عَطَّلَها فَقَد عَطَّلَ عُبُودِيَّة المَلك، وَإن قَامَ بِعُبُودِيَّة رَعِيَّتِهِ من الجَوارِح .

وَالمَقصُود : أن يَكُونَ مَلكُ الأعضَاء – وَهُوَ القَلبُ – قَائماً بِعُبُودِيَّتِهِ للَّه سُبحانَهُ، هوَ وَرَعيَّتُهُ .

وَأَمَّا المُحَرَّمَات الَّتي عَلَيهِ : فَالكِبرُ، وَالرِّيَاءُ،

وَالعُجبُ، وَالحَسَدُ، وَالغَفلَةُ، وَالنِّفَاقُ .

وَهِيَ نوعَان : كُفرٌ، وَمَعصيَةٌ .

فَالكُفرُ : كَالشَكِّ، وَالنِّفَاقِ، وَالشِّرْكِ، وَتَوَابعها .

وَالمَعصيَةُ نوعَانِ : كَبَائِرُ وَصَغَائِرُ .

فَالكَبَائر : كالرِّيَاء، وَالعُجبِ، وَالكِبرِ، وَالفَخرِ، وَالخُيَلاءِ، وَالقُنُوط مِن رَحمَةِ اللّه، وَاليَأس مِن رَوحِ اللّه، وَالأمنِ مِن مَكرِ اللّه، وَالفَرَحِ وَالسُّرورِ بأذى المُسلمينَ، وَالشَّمَاتَةِ بِمُصيبَتِهِم، وَمَحَبَّة أن تَشيعَ الفَاحِشَةُ فيهم، وَحَسَدهم على مَا آتَاهُم اللّه من فَضلِهِ، وَتَمَنِّي زَوَال ذلكَ عَنهُم، وَتَوَابع هذهِ الأُمُور الَّتي هيَ أشَدُّ تَحريمَاً منَ الزِّنا، وَشُربِ الخَمرِ وَغَيرها منَ الكَبَائِرِ الظَّاهِرَةِ، وَلا صَلاحَ للقَلبِ وَلا للجَسَدِ إلاَّ باجتِنَابِها، وَالتَّوبَةِ مِنها، وَإلاَّ فَهوَ قَلبٌ فَاسِدٌ، وَإذا فَسَدَ القَلبُ فَسَدَ البَدَنُ .

وَهذهِ الآفَاتُ إِنَّمَا تَنشَأُ منَ الجَهلِ بعُبُودِيَّةِ القَلبِ، وَتَركِ القِيام بِهِ .

فَوَظِيفَةُ العُبُوديَّة على القَلبِ قَبلَ الجَوارِحِ، فإذا جَهلَها وَتَرَكَ القِيام بِها امتَلأَ بأضدادِها وَلا بُدَّ، وَبِحَسبِ قِيامِهِ بِها يَتَخَلَّصُ مِن أضدادِها .

وَهذهِ الأُمُورُ وَنَحوها قَد تَكُونُ صَغَائر في حَقِّه، وَقَد

تَكُونُ كَبَائِرَ، بِحَسبِ قُوَّتِها وَغلظها، وَخِفَّتِها وَدِقَّتِها .

وَمِنَ الصَّغَائر أيضاً : شَهوَة المُحَرَّمَاتِ وَتَمَنِّيها، وَتَفَاوُت دَرَجَاتِ الشَّهوَةِ في الكِبَرِ وَالصِّغَرِ، بِحسبِ تَفَاوُت دَرَجَاتِ المُشتَهى، فَشَهوَةُ الكُفرِ وَالشِّرْكِ : كُفرٌ، وَشَهوَة البِدعَة : فِسقٌ، وَشَهوَة الكَبَائر : مَعصِيَةٌ، فإِن تَرَكَها للَّه مَع قُدرَتِهِ عَلَيها أُثيبَ، وإن تَرَكَها عَجزاً بَعدَ بَذلهِ مَقدورِه في تَحصِيلِها : استَحَقَّ عُقُوبَة الفَاعِل، لتنزيلِه مَنزِلتِه في أحكَامِ الثَّوَابِ وَالعِقَابِ، وَإِن لَم يَنزِل مَنزِلته في أحكَامِ الشَّرعِ، وَلهذا قال النَّبيُّ ﷺ : « إذا تَوَاجَهَ المُسلمَانِ بِسَيفيهما، فَالقَاتِلُ وَالمَقتُولُ في النَّار » .

قالوا : هذا القَاتِل يا رسول اللّه فَمَا بَالُ المَقتُول ؟

قال : « إِنَّهُ كانَ حَريصاً على قَتلِ صَاحِبِهِ »[1] .

فَنَزَّلَهُ مَنزِلَةِ القَاتِل، لحِرصِهِ على قَتلِ صَاحِبِهِ، في الإِثمِ دُونَ الحُكمِ، وَلَهُ نَظَائِرُ كَثيرةٌ في الثَّوَابِ وَالعِقَابِ .

وَقَد علِمَ بهذا مُستَحَبُّ القَلبِ وَمُبَاحُه .

وَأَمَّا عُبُودِيَّاتُ اللِّسَانِ الخَمسُ، فَوَاجِبُها : النُّطقُ بالشَّهَادَتَينِ، وَتِلاوَةُ مَا يَلزَمُهُ تِلاوتُهُ منَ القُرآنِ، وَهوَ مَا

---

(١) أخرجهُ البخاري (١ / ٨٥ – فتح)، ومسلم (٢٨٨٨) من حديث أبي بَكرَةَ رضي اللّه عنه .

تَتَوَقَّفُ صِحَّةُ صَلاتِهِ عَلَيهِ، وَتَلَفُّظهُ بالأذكَارِ الوَاجِبَة في الصَّلاةِ الَّتي أَمَرَ اللَّه بِها رَسولهُ، كَمَا أمرَ بالتَّسبيحِ في الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَأمَرَ بقَولِ : « رَبَّنَا وَلَكَ الحَمدُ » بَعدَ الاعتِدَال، وَأمَرَ بالتَّشَهُدِ، وَأَمَرَ بالتَّكبيرِ .

وَمِن وَاجِبِهِ : رَدُّ السَّلامِ .

وَمِن وَاجِبِهِ الأمرُ بالمَعرُوفِ وَالنَّهيُ عَن المُنكَرِ، وَتَعليمُ الجَاهِلِ، وَإرشَادُ الضَّالِّ، وَأدَاءُ الشَّهَادَةِ المُتَعَينَةِ، وَصِدقُ الحَديثِ .

وَأمَّا مُستَحَبُّه : فَتِلاوَةُ القُرآنِ، وَدَوَامُ ذِكرِ اللَّه، وَالمُذَاكَرَةُ في العِلمِ النَّافِعِ، وَتَوَابِعُ ذلكَ .

وَأمَّا مُحَرَّمُه : فَهوَ النُّطقُ بِكُلِّ ما يبغضُهُ اللَّه وَرَسولُه، كَالنُّطقِ بالبِدَعِ المُخَالِفَةِ لِمَا بَعَثَ اللَّه بِهِ رَسولهِ، وَالدُّعَاءِ إلَيها، وَتَحسينِها وَتَقوِيَتِها، وَكَالقَذفِ وَسَبِّ المُسلمِ، وَأذَاه بِكُلِّ قَولٍ، وَالكَذِبُ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، وَالقَولُ على اللَّه بِلا عِلمٍ – وَهوَ أشَدُّها تَحريماً .

وَمَكرُوههُ : التَّكَلُّم بِمَا تَركُهُ خَيرٌ منَ الكَلامِ بِه، مَع عَدَم العُقُوبَةِ عَلَيهِ .

وَقَد اختَلَفَ السَّلَفُ : هَل في حَقِّهِ كَلامٌ مُبَاحٌ : مُتَسَاوِيَ الطَّرَفَينِ على قَولَينِ :

أَحَدُهُمَا : أنّهُ لا يَخلُو كُلُّ مَا يَتكلَّمُ بِهِ : إمَّا أن يَكُونَ لَهُ أو عَليهِ . وَلَيسَ في حَقِّهِ شَيءٌ لا لَهُ وَلا عَليهِ .

وقالت طَائفة : بَل هذا الكَلامُ مُبَاحٌ، لا لَهُ وَلا عَليهِ، كَمَا في حَرَكَاتِ الجَوَارِحِ .

قالوا : لأَنَّ كَثيراً مِنَ الكَلامِ لا يَتَعَلَّقُ بِهِ أمرٌ وَلا نَهيٌ . وَهذا شَأْنُ المُبَاحِ .

وَالتَّحقيقُ أَنَّ حَرَكَةَ اللِّسَانِ بالكَلامِ لا تَكُون مُتَساوِيَةَ الطَّرَفَينِ، بَل إمَّا رَاجِحَةٌ، وَإمَّا مَرجُوحَةٌ، لأَنَّ لِلِّسَانِ شَأْناً لَيسَ لِسَائرِ الجَوَارِح، وَإذا أصبَحَ ابنُ آدَم فَإنَّ الأعضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَان، تَقول :

« اتَّقِ اللّه، فإنَّمَا نَحنُ بِكَ، فإن استَقَمتَ استَقَمنَا، وَإن اعوَجَجتَ اعوَجَجنا »[1].

وَأَكثَرُ مَا يُكِبُّ النَّاسَ على مَنَاخِرِهِم في النَّارِ حَصَائِدُ ألسِنَتِهِم، وَكُلُّ ما يَتَلَفَّظُ بِهِ اللِّسَانُ فإمَّا أن يَكُونَ مِمَّا يُرضي اللّه وَرَسولُه أو لا، فإن كَانَ كَذلك فَهوَ الرَّاجِحُ، وَإن لَم يَكُن كَذلكَ فَهوَ المَرجُوحُ .

وهذا بِخلاف حَرَكَات سَائر الجَوَارِح، فإنَّ صَاحِبَها

---

(١) حَسن – أخرجهُ الترمذي (٢٤٠٧) من حديث أبي سعيد الخُدريِّ رضي اللّه عنه .

يَنتَفِعُ بِتَحرِيكها، في المُبَاح المُستَوي الطَّرَفيَنِ، لمَا لهَ في ذلكَ منَ الرَّاحَةِ وَالمَنفَعَةِ، فأُبيحَ لَهُ استعمَالُها فيمَا فيهِ مَنفَعَةٌ لَهُ، وَلا مَضَرَّةَ عَلَيهِ في الآخِرَةِ، وَأمَّا حَرَكَةُ اللِّسَانِ بِمَا لا يَنتَفعُ بِه فَلا يَكُون إلاَّ مَضَرَّةٌ، فَتَأَمَّلْهُ .

فإن قيلَ : فَقَد يَتَحَرَّكُ بِمَا فيهِ مَنفَعَةٌ دُنيَوِيَّةٌ مُبَاحَةٌ مُستَوِيَةُ الطَّرَفيَنِ، فيَكُونُ حُكمُ حَرَكَتِهِ حُكم ذلكَ الفِعلِ .

قيل : حَرَكَتهُ بِها عندَ الحَاجَةِ إلَيها رَاجِحَةٌ، وَعندَ عَدَمِ الحَاجَةِ إلَيها مَرجُوحَةٌ لا تُفيدُه، فَتَكُون عَليهِ لا لَهُ .

فإن قيلَ : فإذا كانَ الفِعلُ مُتَسَاوِيَ الطَّرَفينِ، كانَت حَرَكَةُ اللِّسانِ الَّتي هيَ الوَسيلةُ إليهِ كَذلكَ، إذ الوَسَائِلُ تَابِعَةٌ للمَقصُودِ في الحُكم .

قيل : لا يَلزَم ذلكَ، فَقَد يَكُونُ الشيءُ مُبَاحَاً، بَل وَاجِباً، وَوَسيلَتُه مَكرُوهَةٌ – كَالوَفَاءِ بالطَّاعَةِ المَنذُورَةِ – وَهوَ وَاجِبٌ مَع أنَّ وَسيلَتَهُ – وَهوَ النَّذرُ – مَكرُوهٌ مَنهِيٌّ عنه، وَكَذلك الحلفِ المَكرُوه مَرجُوح، مَع وُجُوب الوَفَاءِ بِه أو الكَفَّارَةِ، وَكَذلك سُؤَال الخَلْقِ عَن الحَاجَةِ مَكرُوهٌ، وَيُبَاحُ لَهُ الانتِفَاعُ بِمَا أخرَجَتهُ لَهُ المَسأَلَةُ .

وَهذا كَثيرٌ جِدَّاً فَقَد تَكُونُ الوَسيلَةُ مُتَضَمِّنَةً مَفسَدَةً تُكرَهُ أو تُحَرَّمُ لأجلِها، وَمَا جعلت وَسيلةٌ إلَيهِ لَيسَ بِحَرَامٍ

وَلا مَكرُوهٍ .

وَأمَّا العُبُوديَّاتُ الخَمسُ على الجَوَارِح : فَعَلى خَمسٍ وَعشرِينَ مَرتَبَةً أيضاً، إذ الحَوَاسُّ خَمسَةٌ، وَعلى كُلِّ حَاسَّةٍ خَمسُ عُبُودِيَّات .

فَعَلى السَّمعِ : وُجُوبُ الإنصَاتِ، وَالاستمَاع لمَا أوجَبَهُ اللَّه عَليهِ، من استمَاعِ الإسلامِ وَالإيمانِ وَفُرُوضِهِمَا، وَكَذلك استماع القِراءَةِ في الصَّلاةِ إذا جَهَرَ بِها الإمَامُ، وَاستِمَاع الخُطبَةِ للجُمعَةِ، في أصَحِّ قَولي العُلَمَاء .

وَيَحرُم عَلَيهِ استمَاعُ الكُفرِ وَالبِدَعِ، إلَّا حيثُ كانَ في استمَاعِه مَصلَحةٌ رَاجِحَةٌ : من رَدِّهِ، أو الشَّهَادَةِ على قَائِلهِ، أو زِيَادَةِ قُوَّةِ الإيمان وَالسُّنَّةِ بمَعرِفَةِ ضِدِّهما منَ الكُفرِ وَالبِدعَةِ وَنَحوِ ذلكَ، وكاستمَاعِ أسرار مَن يَهرُب عَنكَ بِسِرِّهِ، وَلا يُحِبُّ أن يُطلِعَكَ عَلَيهِ، ما لَم يُكن مُتَضَمِّناً لحقٍّ للَّه يَجِبُ القِيَامُ بِه، أو لأذى مُسلمٍ يَتَعَيَّنُ نُصحُهُ، وَتَحذِيرُهُ مِنهُ .

وَكَذلك استمَاعُ أصوَاتِ النِّساءِ الأجانِبِ الَّتي تُخشى الفِتنَةُ بأصواتِهِنَّ، إذا لَم تَدعُ إلَيهِ حَاجَةٌ : من شَهادةٍ، أو مُعَاملَةٍ، أو استِفتاءٍ، أو مُحاكَمَةٍ، أو مُدَاوَاةٍ، وَنَحوها .

وَكَذلك استماعُ المَعَازِفِ وَآلاتِ الطَّرَبِ وَاللَّهوِ :

كَالعُودِ، وَالطنبُورِ، وَاليراعِ، وَنَحوِها، وَلا يَجِبُ عَليهِ سَدُّ أُذنِهِ إذا سَمِعَ الصَّوتَ، وَهوَ لا يُرِيدُ استمَاعَهُ، إلاَّ إذا خَافَ السُّكُونَ إلَيهِ وَالإنصَاتَ، فَحينئذ يَجبُ لتَجَنُّبِ سَمَاعها وُجوبَ سَدِّ الذَّرَائِع .

وَنَظِيرُ هذا المُحَرَّم : لا يَجُوز لَهُ تَعَمُّدُ شَمِّ الطِيبِ، وَإذا حملت الرِّيحُ رائِحَتهُ وَأَلقَتها في مَشَامِّهِ لَم يَجِب عليهِ سَدُّ أنفِهِ .

وَنَظِيرُ هذا : نَظرَةُ الفَجأَةِ لا تَحرُم على النَّاظِرِ، وَتَحرُم عَليهِ النَّظرَةُ الثَّانيَةُ إذا تَعَمَّدَها .

وَأمَّا السَمْعُ المُستَحَبُّ : فَكَاستِمَاعِ المُستَحَبِ منَ العِلمِ، وَقِرَاءَةِ القُرآنِ، وَذِكرِ اللَّه، وَاستمَاع كُلِّ ما يُحِبُّهُ اللَّه، وَلَيسَ بِفَرضٍ .

وَالمَكرُوهُ : عَكسُهُ، وَهوَ استمَاعُ كُل ما يُكره وَلا يعاقبُ عَليهِ .

وَالمُبَاحُ ظَاهِر .

وَأمَّا النَّظَرُ الوَاجِبُ : فَالنَّظَرُ في المُصحَفِ وَكُتُبِ العِلمِ عندَ تعين تَعَلُّم الوَاجِب مِنها، وَالنَّظَرُ إذا تَعَيَّنَ لِتَمييزِ الحَلالِ منَ الحَرَامِ في الأعيَانِ الَّتي يَأكُلُها أو يُنفِقُها أو يَستَمتِعُ بِها، وَالأمَانَاتِ الَّتي يُؤديها إلى أربَابِها لِيُمَيِّزَ بينَها، وَنَحوِ ذلكَ .

وَالنَّظَرُ الحَرَامُ : النَّظَرُ إلى الأجنَبيَّاتِ بِشَهوَةٍ مُطلَقاً، وَبِغَيرِها إلَّا لحَاجَةٍ، كَنَظَرِ الخَاطِبِ، وَالمستَام، وَالمعَامِلِ، وَالشَاهِدِ، وَالحاكِمِ، وَالطَّبيبِ، وَذي المحرم .

وَالمُستَحَبُّ : النَّظَرُ في كُتُبِ العِلمِ وَالدِّينِ الَّتي يَزدَادُ بِها الرَّجُلُ إيمَاناً وَعِلمَاً، وَالنَّظَرُ في آيَاتِ اللَّه المَشهُودَةِ، لِيُستَدلَّ بها على تَوحِيدِهِ، وَمَعرِفَتِهِ، وَحكمَتِهِ .

وَالمَكرُوه : فُضُولُ النَّظَر الَّذي لا مَصلَحَةَ فيهِ، فإنَّ لَهُ فُضُولاً كَمَا للِّسَانِ فُضُولاً، وَكَم قَادَ فُضُولُها إلى فُضُولٍ عَزَّ التَّخَلُّصُ منها، وَأعيى دَوَاؤُها .

وَقَالَ بَعضُ السَّلَف : كَانوا يَكرَهُونَ فُضُولَ النَّظَرِ، كَمَا يَكرَهُونَ فُضُولَ الكَلام .

وَالمُبَاحُ النَّظَرُ الَّذي لا مَضَرَّةَ فيهِ في العَاجِلِ وَالآجِلِ وَلا مَنفَعَةَ .

وَمِنَ النَّظَر الحَرَام : النَّظَرُ إلى العَورَاتِ، وَهِيَ قِسمَانِ :

عَورَةٌ وَرَاءَ الثِّيَاب، وَعَورَةٌ وَرَاءَ الأبوَاب .

وَلَو نَظَرَ في العَورَةِ الَّتي وَرَاءَ الأبواب فَرَمَاهُ صَاحِبُ العَورَةِ، فَفَقَأ عَينَهُ، لَم يَكُن عَلَيهِ شَيءٌ، وَذَهَبَت هَدَراً، بِنَصِّ رسولِ اللَّه ﷺ في الحديثِ المتَّفَقِ على

صِحَّتِهِ[1]، وَإِن ضَعَّفَهُ بَعضُ الفُقَهَاء[2]، لِكَونِه لَم يَبلُغهُ النَّصُّ، أو تَأَوَّلَهُ .

وَهذا إذا لَم يَكُن للنَّاظِرِ سَبَبٌ يُبَاحُ النَّظَرُ لأجلِهِ، كَعَورَةٍ لَهُ هُناكَ يَنظُرُها، أو رِيبَةٍ هوَ مَأمُورٌ – أو مَأذُونٌ لَهُ – في الاطِّلاعِ عَليها .

وَأمَّا الذَّوقُ الوَاجِبُ : فَتَنَاوُلُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ عندَ الاضطِرَارِ إليهِ، وَخَوفِ المَوتِ، فإن تَرَكَهُ حَتَّى مَاتَ مَاتَ عَاصِياً قَاتِلاً لنَفسِهِ .

قال الإمامُ أحمَد وَطَاوس : مَن اضطرَ إلى أكلِ المَيتَةِ فَلَم يَأكُل حَتَّى مَاتَ دَخَلَ النَّارَ .

وَمِن هذهِ تَنَاوُل الدَّوَاءِ إذا تَيَقَّنَ النَّجَاةَ بِهِ منَ الهَلاكِ – على أصَحِّ القَولَينِ – وَإن ظَنَّ الشِّفَاءَ بِهِ، فَهَل هوَ مُستَحَبٌّ مُبَاحٌ، أو الأفضَل تَركُهُ ؟

فيهِ نِزَاعٌ مَعرُوفٌ بينَ السَّلَفِ وَالخَلَفِ .

وَالذَّوقُ الحَرَامُ : كَذَوقِ الخَمرِ، وَالسُّمُومِ القَاتِلَةِ،

---

(١) يشيرُ إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه عندَ البخاري (١٢ / ٢٤٣ – فتح)، ومسلم (٢١٥٨) (٤٤) مرفوعاً « لَو أنَّ امرءاً اطَّلَعَ عَلَيكَ بِغَيرِ إذنٍ فَحَذَفتَهُ بِحَصَاةٍ فَفَقَأتَ عَينَهُ لَم يَكُن عَلَيكَ جُنَاحٌ » .

(٢) من المالِكيَّة .

وَالذَّوقِ المَمنُوعِ مِنهُ للصَّومِ الوَّاجِبِ .

وَأمَّا المَكرُوه : فَكَذَوقِ المُشتَبِهَاتِ، وَالأكلِ فَوقَ الحاجَةِ، وَذَوقِ طَعَامِ الفُجاءةِ، وهوَ : الطَّعَامُ الَّذي تَفجَأ آكِلَهُ، وَلَم يُرِد أن يَدعُوكَ إلَيهِ، وكأكلِ أطعِمَةِ المُرائينَ في الوَلائِمِ وَالدَّعواتِ وَنَحوها .

وَفي « السُّنَن » أنَّ رسول اللَّه ﷺ : « نَهَى عن طَعَامِ المُتَبَارِينَ »[1] .

وَذَوقِ طَعَامِ مَن يُطعِمكَ حَيَاءً مِنكَ لا بِطِيبَةِ نَفسٍ .

وَالذَّوقُ المُستَحَبُّ : أكلُ ما يُعينُكَ على طَاعَةِ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، مِمَّا أذِنَ اللَّه فيهِ، وَالأكلُ مَعَ الضَّيفِ لِيَطيبَ لَهُ الأكلُ، فيَنَالَ مِنهُ غَرَضَهُ، وَالأكلُ مِن طَعَامِ صَاحِبِ الدَّعوَةِ الوَّاجِبُ إجَابَتُها أو المُستَحَبُّ .

وَقَد أوجَبَ بَعضُ الفُقَهَاءِ الأكلَ مِنَ الوَليمَةِ الوَاجِبُ إجَابَتُها، للأمرِ بِه عَن الشَّارِعِ .

وَالذَّوقُ المُبَاحُ : ما لَم يَكُن فيهِ إثمٌ وَلا رُجحَانٌ .

وَأمَّا تَعَلُّق العُبُودِيَّات الخَمس بِحَاسَّة الشَّمِّ :

فَالشَّمُّ الوَاجِبُ : كُلُّ شَمٍّ تَعَيَّن طَرِيقاً للتَمييزِ بيَنَ الحَلالِ وَالحَرامِ، كَالشَّمِّ الَّذي تَعلَمَ بِه هَل هيَ خَبيثَةٌ

(١) صحيح لغيره، كما بيَّنَه شيخنا في « الصَّحيحة » (٦٢٦) .

أو طَيِّبَةٌ ؟

وهل هيَ سُمٌّ قَاتِلٌ أو لا مَضَرَّةَ فيهِ ؟

أو يَمِيزَ بِهِ بينَ مَا يَملكُ الانتِفَاعَ بِهِ، ومَا لا يَملِكُ ؟

وَمن هذا شمُّ المُقَوِّم، وَرَبُّ الخِبرَةِ، عندَ الحُكمِ بالتَّقويمِ، وَشمُّ العَبيد وَنَحو ذلك .

وَأَمَّا الشَمُّ الحَرَامُ : فَالتَّعَمُّدُ لشَمِّ الطِيبِ في الإحرَامِ، وَشمِّ الطِّيبِ المَغصُوبِ وَالمَسروقِ، وتَعَمُّدُ شَمِّ الطِّيبِ منَ النِّسَاءِ الأجنَبيَّاتِ خَشيَةَ الافتِتَان بِمَا وَرَاءَه .

وَأمَّا الشَمُّ المُستَحَبُّ : فَشَمُّ مَا يُعينُكَ على طَاعَةِ اللَّه، ويُقَوِّي الحَوَاسَّ، وَيَبسُطُ النَّفسَ للعِلم وَالعَمَلِ، وَمِن هذا هَديَّةُ الطِّيبِ وَالرَّيحَانِ إذا أُهدِيَت لَكَ، فَفي « صحيح مسلم »[1] عن النَّبيِّ ﷺ :

« مَن عُرِضَ عَلَيهِ رَيحَانٌ فَلا يَرُدُّهُ، فإنَّهُ طَيِّبُ الرِّيحِ، خَفيفُ المَحمَلِ » .

وَالمَكرُوهُ : كَشَمِّ طيبِ الظَّلَمَةِ، وَأصحَابِ الشُّبُهاتِ، وَنَحو ذلكَ .

وَالمُبَاحُ : مَا لا مَنعَ فيهِ منَ اللَّه وَلا تَبِعَةً، وَلا فيهِ مَصلَحَةٌ دينِيَّةٌ، وَلا تَعلُّقَ لَهُ بالشَّرعِ .

---

(١) برقم (٢٢٣٥) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه .

وَأمَّا تَعَلُّق هذهِ الخَمسَةُ بِحَاسَّةِ اللَّمسِ :

فَاللَّمسُ الوَاجِبُ : كَلَمسِ الزَّوجَةِ حينَ يَجِبُ جِمَاعُهَا، وَالأمَةِ الوَاجِبُ إعفَافُها .

وَالحَرامُ : لَمس مَا لا يَحلُّ منَ الأجنَبِيَّاتِ .

وَالمُستَحَبُّ : إذا كانَ فيهِ غَضٌّ بَصَرِهِ، وَكَفٌّ نَفسِهِ عَن الحَرَامِ، وَإعفَافُ أهلِهِ .

وَالمَكرُوه : لَمس الزَّوجَةِ في الإحرَامِ لِلَذَّةِ . وَكَذلكَ في الاعتِكَافِ، وَفي الصِّيَامِ إذا لَم يَأمَن على نَفسِهِ .

وَمِن هذا لَمسُ بَدَنِ المَيِّتِ - لغَيرِ غَاسِلِهِ - لأنَّ بَدَنهُ قَد صَارَ بمَنزِلَة عَورَةِ الحَيِّ تَكرِيمَاً لَهُ، وَلهذا يُستَحَبُّ سَترُه عَن العُيُونِ، وَتَغسِيلُهُ في قَميصِهِ في أحَدِ القَولَينِ، وَلَمسُ فَخذِ الرَّجُلِ، إذا قُلنا : هيَ عَورَةٌ[1] .

وَالمُبَاحُ : مَا لَم يَكُن فيهِ مَفسَدَةٌ وَلا مَصلَحَةٌ دِينِيَّةٌ .

وَهذِ المَرَاتِبُ أيضاً مُرَتَّبَةٌ على البَطشِ بَاليَدِ، وَالمَشيِ بالرِّجلِ، وَأمثِلَتُها لا تَخفى : فَالتَكَسُّبُ المَقدُورُ للنَّفَقَةِ على نَفسِهِ وَأهلِهِ وَعِيَالهِ : وَاجِبٌ، وَفي وُجُوبِهِ لِقَضَاءِ دَينِهِ خِلافٌ، وَالصَّحيحُ : وُجُوبهُ ليُمَكِّنهُ من أدَاءِ دَينهِ، وَلا يَجِبُ لإخرَاجِ الزَّكَاةِ، وَفي وُجُوبِهِ لأدَاءِ فَرِيضَةِ الحَجِّ نَظَرٌ .

---

(١) وهيَ كَذلك .

وَالأقوى في الدَّليلُ : وُجُوبهُ لدُخولهِ في الاستِطَاعَة، وتَمَكُّنِهِ بذلكَ مِن أدَاءِ النُّسُكِ، وَالمَشهُور عَدَم وُجُوبِهِ .

وَمِنَ البَطش الوَاجِب : إعَانَةُ المُضطَر، وَرَمي الجِمَار، وَمُبَاشَرَة الوُضُوءِ وَالتَّيَمُّم .

وَالحَرَامُ : كَقَتلِ النَّفسِ الَّتي حَرَّمَ اللَّه قَتلَها، وَنَهبِ المَالِ المَعصُوم، وَضَربِ مَن لاَ يَحِلُّ ضَربُهُ، وَنَحو ذلكَ، وَكَأنوَاع اللَّعِبِ المُحَرَّم بالنَّصِّ كالنَّردِ، أو ما هوَ أشَدُّ تَحريمَا مِنهُ عندَ أهلِ المَدينَةِ، كالشَطَرنجِ، أو مِثله عندَ فُقَهاءِ الحَديثِ كَأحمَد وَغَيرِه، أو دُونه عندَ بعضهم، وَنَحو كِتابَةِ البِدَعِ المُخَالِفَة للسُّنَّةِ تَصنيفاً وَنَسخاً إلاَّ مَقرُوناً بِرَدِّها وَنَقضِها، وَكِتَابَةِ الزُّورِ وَالظُّلمِ، وَالحُكم الجَائر، وَالقَذفِ وَالتَّشبيبِ بالنِّسَاءِ الأجَانِبِ، وَكِتَابَة مَا فيهِ مَضَرَّةٌ على المُسلمينَ في دينِهِم أو دُنيَاهمُ، وَلا سِيَّمَا إن كسبت عَليهِ مَالاً : ﴿ **فَوَيلٌ لَهُم مِمَّا كَتَبَت أيدِيهِم وَوَيلٌ لَهُم مِمَّا يَكسِبُونَ** ﴾ [**البقرة : ٧٩**] وَكَذلكَ كِتَابَةُ المُفتي على الفَتوى مَا يُخَالِفُ حُكمَ اللَّه وَرسُولهِ، إلاَّ أن يَكُونَ مُجتَهِداً مُخطِئاً، فَالإِثمُ مَوضُوعٌ عَنهُ .

وَامَّا المَكرُوهُ : فَكَالعَبَثِ وَاللَّعِبِ الَّذي لَيسَ بِحَرَام، وَكِتَابَةِ مَا لا فَائِدَةَ في كِتابَتِهِ، وَلا مَنفَعَةَ فيهِ في الدُّنيا

وَالآخِرَةِ .

وَالمُستَحَبُّ : كِتَابَةُ كُلِّ ما فيهِ مَنفَعَةٌ في الدِّينِ، أو مَصلَحَةٌ لمسلمٍ، وَالإحسَانُ بيَدهِ أن يُعينَ صَانِعَاً، أويَصنَعَ لأخرَقَ، أو يُفَرِغَ مِن دَلوهِ في دَلوِ المُستَسقي، أو يَحمِلَ لَهُ على دَابَّتِهِ، أو يُمسِكَها حَتَّى يَحمِلَ عَلَيها، أو يُعَاوِنَهُ بيدِهِ فيمَا يَحتَاجُ إلَيهِ، وَنَحو ذلكَ .

وَمنهُ لَمسُ الرُّكن بيدِهِ في الطَّوَافِ .

وَالمُبَاحُ : ما لا مَضَرَّةَ فيهِ وَلا ثَوَابَ .

وَأمَّا المَشيُ الوَاجِبُ : فَالمَشيُ إلى الجُمُعَاتِ وَالجَمَاعاتِ، في أصَحِّ القَولَينِ، لبِضعَةٍ وَعشرينَ دَليلاً، مَذكُورَةً في غَيرِ هذا المَوضِعِ، وَالمَشيُ حَولَ البَيتِ للطَّوافِ الوَاجِبِ، وَالمَشي بينَ الصَّفَا وَالمَروَةَ بنَفسِهِ أو بِمَركُوبِهِ، وَالمَشيُ إلى حُكمِ اللَّه وَرَسولهِ إذا دُعِيَ إلَيهِ، وَالمَشيُ إلى صِلَةِ رَحِمِهِ، وَبِرِّ وَالِدَيهِ، وَالمَشيُ إلى مَجَالس العِلم الوَاجِبُ طَلَبُهُ وَتَعَلُّمُهُ، وَالمَشيُ إلى الحَجِّ إذا قَرُبَت المَسَافَةُ، وَلَم يَكُن عَلَيهِ فيهِ ضَرَرٌ .

وَالحَرَامُ : المَشيُ إلى مَعصيَةِ اللَّه، وَهوَ رَجْل الشَّيطَان، قال تعالى : ﴿ **وَأجلِب عَلَيهِم بِخيلِكَ وَرَجِلِكَ** ﴾ [**الإسراء** : ٦٤] ، فَكُلُّ رَاكِبٍ وَمَاشٍ في مَعصِيَةِ اللَّه فَهوَ

مِن جُندِ إبليس .

وكَذلك تتَعَلَّقُ هذهِ الأحكَامُ الخَمسُ بالرُّكُوبِ أيضاً .

فَوَاجِبُهُ : في الرُّكُوبِ في الغَزوِ، وَالجِهَادِ، وَالحَجِّ الوَاجِبِ .

وَمُستَحَبُّهُ : في الرُّكُوبِ المُستَحَبِّ من ذلكَ، وَلِطَلَبِ العِلم، وَصِلَةِ الرحِم، وَبِرِّ الوَالِدَينِ، وَفي الوُقُوفِ بِعَرَفَةَ نِزَاعٌ : هَل الرُّكُوب فيهِ أفضَلُ، أم عَلى الأرضِ ؟

وَالتَّحقيق : أنَّ الرُّكُوبَ أفضَلُ إذا تَضَمَّن مَصلَحَةً : من تَعليمٍ للمَنَاسِكِ، وَاقتِدَاءٍ بِهِ، وكَانَ أعوَنَ على الدُّعَاءِ وَلَم يَكُن فيهِ ضَرَرٌ على الدَّابَّةِ .

وَحَرَامُهُ : الرُّكُوبُ في مَعصِيَةِ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ .

وَمَكرُوههُ : الرُّكُوب للَّهوِ وَاللَّعِبِ، وكُل ما تَركُهُ خَيرٌ مِن فِعلِهِ .

وَمُبَاحهُ : الرُّكُوبُ لمَا لَم يَتَضَمَّن فَوتَ أجرٍ، وَلا تَحصِيل وِزرٍ .

فَهذِهِ خمسُونَ مَرتَبَةً على عَشرَةِ أشيَاء : القَلبِ، وَاللِّسَانِ، وَالسَّمعِ، وَالبَصرِ، وَالأنفِ، وَالفَمِ، وَالرِّجلِ، وَالفَرجِ، وَالاستِوَاءِ على ظَهرِ الدَّابَّةِ »[1] .

« مدارج السالكين » (١ / ١٠٩ – ١٢٢) باختِصَارٍ، وتَصرّفٍ .

مَرَاتِبُ العُبُودِيَّة

قالَ ابن قَيِّم الجوزية رحمه الله :

« للعُبُودِيَّةِ مَرَاتِب، بَحَسبِ العِلمِ وَالعَمَلِ .

فَأَمَّا مَرَاتِبُها العِلمِيَّةُ فَمَرتَبَتَانِ :

إحدَاهُما : العِلمُ باللَّهِ .

وَالثَّانِيَةُ : العِلمُ بِدِينِهِ .

فَأَمَّا العِلمُ بِهِ سُبحانَهُ، فَخَمسُ مَرَاتِب : العِلمُ بِذَاتِه، وَصِفَاتِه، وَأَفعَالِهِ، وَأَسمَائِه، وَتَنزِيهُه عَمَّا لا يَليقُ بِه .

وَالعِلمُ بِدِينِهِ مَرتَبَتَانِ :

إحدَاهُمَا : دِينُه الأمرِيُّ الشَّرعِيُّ، وَهوَ الصِّرَاطُ المُستَقِيمُ المُوصِلُ إِلَيهِ .

والثَّانِيةُ : دِينُهُ الجُزئِيُّ، المُتَضَمِّن ثَوَابَهُ وَعِقَابَهُ، وَقَد دَخَلَ في هذا العِلمِ العِلمُ بِمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِه .

وَأَمَّا مَرَاتِبُها العِلمِيَّةُ، فَمَرتَبَتَانِ :

مَرتَبَةٌ لأصحَابِ اليَمينِ، وَمَرتَبَةٌ للسَّابِقِينَ المُقَرَّبينَ .

فَأَمَّا مَرتَبَةُ أصحَابِ اليَمينِ : فَأَدَاءُ الوَاجِبَاتِ، وَتَركُ

المُحَرَّمَاتِ، مَع ارتِكَابِ المُبَاحَاتِ، وبَعضِ المَكرُوهَاتِ، وتَركِ بَعضِ المُستَحَبَّاتِ .

وأمَّا مَرتَبَةُ المُقَرَّبينَ : فَالقِيامُ بالوَاجِبَاتِ وَالمَندُوبَاتِ، وتَركُ المُحَرَّمَاتِ وَالمَكرُهَاتِ زَاهِدينَ فيمَا لا يَنفَعُهُم في مَعَادِهِم، مُتَوَرِعينَ عَمَّا يَخافُونَ ضَرَرَهُ .

وَخاصَتُهُم : انقَلَبَت المُبَاحَاتُ في حَقِّهِم طَاعَاتٍ وقُرُبَاتٍ بالنِّيَّةِ، فَلَيسَ في حَقِّهِم مُبَاحٌ مُتَسَاوِيَ الطَّرَفَينِ، بَل كُلُّ أعمَالِهم رَاجِحَةٌ، وَمَن دُونَهُم يَترُكَ المُبَاحَاتِ مُشتَغِلاً عَنها بالعِبَادَاتِ، وَهَؤُلاءِ يأتُونَهَا طَاعَاتٍ وقُرُبَاتٍ، وَلأهلِ هَاتَيْنِ المَرتَبَتَينِ دَرَجَاتٌ لا يُحصِيها إلاَّ اللَّهُ »[1].

(١) « مَدَارج السالكين » (١ / ١٠٧ - ١٠٨) .

أقسامُ العُبوديّة

قال ابن قَيِّم الجوزيَّة رحمه الله :

« العُبُودِيَّة نوعَانِ : عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ .

فالعُبُودِيَّةُ العَامَّةُ : عُبُوديَّة أهلِ السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ كُلِّهم لله، بَرِّهم وَفَاجِرِهم، مُؤمِنِهم وكَافِرِهم، فَهذِهِ عُبُودِيَّة القَهرِ وَالمُلكِ، قال تعالى : ﴿ **وَقَالوا اتَّخذَ اللَّهُ وَلَداً * لَقَد جِئتُم شَيئاً إدًّاً * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتفطَّرنَ مِنهُ وَتَنشَقُّ الأرضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّاً * أن دَعَوا للرَّحمنِ وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي للرَّحمَنِ أن يَتَّخِذَ وَلَداً * إن كُلُّ مَن في السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ إلَّا آتِي الرَّحمنِ عَبدَاً** ﴾ [مريم : ٨٨ – ٩٣]، فَهذا يُدخُلُ فيهِ مُؤمِنهم وكَافرهم .

وقال تعالى : ﴿ **وَيَومَ يَحشُرُهُم وَمَا يَعبُدُونَ مِن دُونِ اللَّه فيَقُول أأَنتُم أضلَلتُم عِبَادي هَؤُلاءِ** ﴾ [الفرقان : ١٧]، فَسَمَّاهمُ عِبَادَه مَع ضَلالِهِم، لكن تَسمِيَةً مُقيَّدَةً بالإشَارَة .

وَأمَّا المُطلَقَة : فَلَم تَجِيء إلَّا لأهلِ النَّوعِ الثَّاني، كَمَا

سَيَأتي بيَانُه إن شَاءَ اللَّه .

وقال تعالى : ﴿ قُل اللَّهمَّ فَاطِر السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ عَالمَ الغَيبِ وَالشَّهَادَةِ أنتَ تَحكُمُ بينَ عِبَادِكَ فيمَا كَانوا فيهِ يَختَلِفُونَ ﴾ [الزمر : ٤٦]، وقال : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُريدُ ظُلمَاً للعِبَادِ ﴾ [غافر : ٣١]، وقال : ﴿ إنَّ اللَّه قَد حَكَمَ بيَنَ العِبَادِ ﴾ [غافر : ٤٨] .

فَهَذا يَتَنَاوَل العُبُوديَّةِ الخَاصَّة وَالعَامَّة .

وَأمَّا النَّوعُ الثَّاني : فَعُبُودِيَّة الطَّاعَة وَالمَحبَّة، وَاتِّبَاعِ الأوَامِر، قال تعالى : ﴿ يا عِبَادي لا خَوفٌ عَلَيكم اليَومَ وَلا أنتُم تَحزَنُونَ ﴾ [الزخرف : ٦٨]، وقال : ﴿ فَبَشِّر عِبَادِ ۔ الَّذينَ يَستَمِعُونَ القَولَ فيَتَّبِعُونَ أحسَنَهُ ﴾ [الزمر : ١٧ – ١٨]، وقال : ﴿ وَعِبَادِ الرَّحمَنِ الَّذينَ يَمشُونَ في الأرضِ هَوناً ۔ وَإذا خَاطَبهُم الجَاهِلُونَ قَالوا سَلامَاً ﴾ [الفرقان : ٦٣ – ٦٤]، وقال تعالى عَن إبليس : ﴿ لأغوِيَنَّهُم أجمَعينَ ۔ إلَّا عِبَادَكَ مِنهُم المُخلَصِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩ – ٤٠]، فقال تعالى عنهُم : ﴿ إنَّ عِبَادِي لَيسَ لَكَ عَلَيهم سُلطَان ﴾ [الحجر : ٤١] .

فَالخَلقُ كُلُّهُم عَبيدُ رُبُوبيَّتِهِ .

وَأهلُ طَاعَتِهِ وَولايَتِهِ : هُم عَبيدُ إلهيَّتِه .

وَلا يَجِيءُ في القُرآن إضَافَةُ العِبَادِ إلَيهِ مُطلَقاً إلاَّ لِهَؤُلاءِ .

وَأمَّا وَصفُ عَبيدِ رُبُوبِيَّتِهِ بالعُبُوديَّةِ : فَلا يَأتي إلاَّ عَلى أحَد خَمسَة أوجُه :

إمَّا مُنَكَّراً، كَقَولِهِ : ﴿ **إن كُلُّ مَن في السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ إلاَّ آتِ الرَّحمَنِ عَبدَاً** ﴾ [**مريم : ٩٣**] .

والثَّاني : مُعَرَّفَاً باللاَّمِ، كَقَوله : ﴿ **وَمَا اللَّهُ يُريدُ ظُلمَاً للعِبَادِ** ﴾ [**غافر : ٣١**]، ﴿ **إنَّ اللَّهَ قَد حَكَمَ بينَ العِبَادِ** ﴾ [**غافر : ٤٨**] .

الثَّالث : مُقَيَّداً بالإشَارَةِ أو نَحوِها، كَقَوله : ﴿ **أأنتُم أضلَلتُم عِبَادي هَؤُلاءِ** ﴾ [**الفرقان : ١٧**] .

الرَّابع : أن يذكرُوا في عُمُومِ عبَادَه، فيَندَرِجُوا مَع أهلِ طَاعَتِهِ في الذِكرِ، كَقَولِهِ : ﴿ **أنتَ تَحكُمُ بينَ عِبَادِكَ فيمَا كَانوا فيهِ يَختَلِفُونَ** ﴾ [**الزمر : ٤٦**] .

الخَامِس : أن يُذكَروا مَوصُوفينَ بِفعلِهِم، كَقوله : ﴿ **قُل يَاعِبَادي الَّذينَ أسرفُوا عَلى أنفُسِهِم لا تَقنَطُوا مِن رَحمَةِ اللَّه** ﴾ [**الزمر : ٥٣**] .

وَقَد يُقَال : إنَّمَا سَمَّاهُم « عِبَاده » إذا لَم يَقنَطُوا مِن رَحمَةِ اللَّه، وَأَنَابوا إلَيهِ، وَاتَّبَعُوا أحسَنَ مَا أُنزِلَ إلَيهِم مِن رَبِّهِم، فيَكُونُونَ مِن عَبيدِ الإلهية وَالطَّاعة .

وَإنَّمَا انقَسَمَت العُبُوديَّة إلى خَاصَّة وَعامَّة، لأَنَّ أصلَ مَعنى اللَّفظَة : الذُّلُّ وَالخُضُوعُ، يُقال : « طَريقٌ مُعَبَّدٌ » إذا كَانَ مُذَلَّلاً بِوَطءِ الأقدَام، وَ « فُلانٌ عَبَّدَهُ الحُبُّ » إذا ذَلَّلَهُ، لكِن أولِيَاؤُهُ خَضَعُوا لَهُ وَذَلُّوا طَوعَاً وَاختِيَاراً، وَانقِيَاداً لأمرِهِ وَنَهيِهِ، وَأعدَاؤُهُ خَضَعُوا لَهُ قَهراً وَرَغماً »أ . هـ[1] .

---

(١) « مدارج السالكين » (١ / ١٠٥ - ١٠٦) .

مُوجبَاتُ العُبُودِيَّة

قال تعالى :

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اعبُدُوا رَبَّكُم الَّذي خَلَقَكُم وَالَّذينَ مِن قَبلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ * الَّذي جَعَلَ لَكُم الأرضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأخرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزقاً لَكُم فَلا تَجعَلُوا للَّه أندَاداً وَانتُم تَعلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١ - ٢٢] .

جَمَعَ اللَّه سُبحَانَهُ وَتعالى في هذا النِّدَاءِ الكَريم إلى النَّاسِ كُلِّهم مُوجِبَاتِ العُبُودِيَّة : فَهوَ رَبُّهُم الَّذي خَلَقَهُم وَالَّذينَ مِن قَبلِهِم، وَهوَ رَبُّهُم الَّذي يَرزُقهم، رَبُّهم الَّذي تَفَرَّدَ بالخَلقِ، وَالرِّزقِ، فَوَجَبَ أن يتفرَّد بالعُبُودِيَّةِ .

١ - اللَّهُ جَلَّ جلاله خَالقنا، فَهوَ وَحدَهُ يَستَحقُّ العِبَادَة .

لَقَدد خَلَقَ اللَّه بَني أدَمَ في أحسَنِ تَقويم، وَكَرَّمَهُم وَفضَّلَهُم على كَثيرٍ مِمَّا خَلَقَ تَفضِيلاً، وَأرَادَ لَهُمً أن يَكُونُوا

على أفضَلِ صُورَةٍ مُختَارَةٍ مِن صُوَرِ البَشَرِيَّةِ ... صُورَة العَابِدينَ للّه ... المُتَّقينَ لَهُ الَّذينَ أدُّوا مُقتَضى الرُّبُوبيّةِ الخَالقَة؛ فَعَبَدُوا الخَالقَ وَحدَهُ .

وَلَقَد خَاطَبَ الرَّبُّ الكَريم النَّاس بهذا المُوجب في غَيرِ مَوضِعٍ فقال :

﴿ يا أيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم الَّذي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنها زَوجَها وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالاً كَثيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّه الَّذي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأرحَام إنَّ اللَّه كانَ عَلَيكُم رَقِيباً ﴾ [النِّساء : ١] .

وبِه احتَجَّ الأنبِيَاءُ صَلَوات اللَّه وَسَلامُه عَليهِم، كَمَا قال تعالى مُخبِراً عَنهُم : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذي خَلَقَكُم وَالجِبِلَّةَ الأوَّلينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٤] .

٢ – اللَّه هوَ رَازِقنا؛ فَهوَ وَحدهُ يَستَحقُّ العِبَادَة .

قال اللَّه تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ وَالإنسَ إلاَّ لِيَعبُدُون * مَا أُريدُ مِهُم مِن رِزقٍ وَمَا أُريدُ أن يُطعِمُون * إنَّ اللَّه هوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِين ﴾ [الذاريات : ٥٦ – ٥٨] .

فَاللَّه وَحدَهُ هوَ الَّذي يَغذُو العَبْدَ بِنِعَمِهِ، فيَنبَغي على

العَبدِ أن يَكُونَ شَاكِراً لأنعمِهِ، مُقِرّاً بِحِكمَتِهِ .

وَلَقَد احتَجَّ الأنبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّه وَسَلامُه عَلَيهِم بِهذا المُوجِب على أقوَامِهِم، كَمَا قال اللَّه تعالى عن إبراهيم الخليل عليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ :

﴿ فَابتَغُوا عِندَ اللَّه الرِّزقَ وَاعبُدُوهُ وَاشكُرُوا لَهُ وَإلَيهِ تُرجَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٧] .

قال شَيخُ الإسلامِ ابن تَيمِيَّة رحمه اللَّه :

« فَالعَبدُ لا بُدَّ لَهُ مِن رِزقٍ، وَهوَ مُحتَاجٌ إلى ذلكَ؛ فإذا طَلَبَ رِزقَهُ مِنَ اللَّه صَارَ عَبداً للَّه، فَقِيراً إلَيهِ، وَإذا طَلَبَهُ مِن مَخلُوقٍ صَارَ عَبداً لذلكَ المَخلُوق، فَقيراً إلَيهِ، وَلهذا كَانَت مَسأَلَةُ المَخلُوق مُحَرَّمَةً في الأصلِ، وَإنَّمَا أُبيحَت للضَّرُورَةِ .

وَفي النَّهيِ عنها أحاديثُ كَثيرةٌ في « الصِّحَاحِ » وَ « السُّنَنِ » وَ « المَسَانِيد » :

كَقَولِهِ ﷺ : « لا تَزَالُ المَسأَلَةُ بأحَدِكُم حَتَّى يَأتِيَ يَومَ القِيامَةِ وَلَيسَ في وَجهِهِ مُزعَةٌ[1] مِن لَحمٍ »[2] .

(١) أي : قِطعَة .

(٢) أخرجهُ البخاري (٣ / ٣٣٨ – فتح)، ومسلم (١٠٤٠) عن ابن عُمر رضي اللَّه عنهما .

وقال أيضاً : « لأن يَأْخُذَ أحَدُكُم أَحبلَهُ فيَذهَب فيَحتَطِب، خَيرٌ لهَ مِن أن يَسأَل النَّاسَ؛ أعطُوهُ أو مَنَعُوهُ »[1].

وَقال : « ما أتَاكَ مِن هذا المَالِ وَأنتَ غَيرُ سَائِلٍ، وَلا مُستَشرِفٍ فَخُذهُ، وَمَا لا، فَلا تُتبِعهُ نَفسَكَ »[2].

فَكَرِهَ أخذَهُ مَع سُؤَال اللِّسَانِ، وَاستِشرَافِ القَلبِ .

وَقال في الحديثِ الصَّحيحِ : « مَن يَستَغنِ يُغنِهِ اللَّه، وَمَن يَستَعِفَّ يُعِفَّهُ اللَّه، وَمَن يَتَصَبَّر يُصَبِّرْهُ اللَّه، وَمَا أُعطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيراً وَأَوسَعَ مِنَ الصَّبرِ »[3].

وَأَوصى خَوَاصَّ أصحابِهِ أن لا يَسأَلوا النَّاسَ شَيئاً :

وَفي « صحيح مسلم »[4] وَغيرِهِ عن عَوف بن مالك أنَّ النَّبيَّ ﷺ بَايَعَهُ في طَائِفَةٍ، وَأَسَرَّ إلَيهِم كَلمَةً خَفيفَةً :

« أن لا تَسأَلُوا النَّاسَ شَيئاً » .

---

(١) أخرجهُ البخاري (٣ / ٣٣٥ - فتح) من حديث عبدالله بن الزُّبيْر رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه البخاري (٣ / ٣٣٧ - فتح)، ومسلم (١٠٤٥) من حديث عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه .

(٣) أخرجهُ البخاري (٣ / ٣٧٥ - فتح)، وَمسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سَعيد الخدريِّ رضي الله عنه .

(٤) برقم (١٠٤٣) .

فَكَانَ بَعضُ أُولئِكَ النَّفرِ يَسقُطُ السَّوطُ مِن يَدِ أحَدِهِم وَلا يَقولُ لأحَدٍ : نَاوِلني إيَّاهُ .

وَقَد دَلَّت النُّصُوصُ على الأمرِ بمسأَلَةِ الخَالق، وَالنَّهيِ عَن مَسأَلَةِ المَخلُوقِ في غَيرِ مَوضِعٍ :

كقَولِهِ تعالى : ﴿ **فإذا فَرَغتَ فَانصَب * وَإلى رَبِّكَ فَارغَب** ﴾ [**الإنشراح** : ٧ - ٨] .

وَقول النَّبيِّ ﷺ لابن عبَّاس : « إذا سَأَلتَ فَاسأَل اللَّه، وَإذا استَعَنتَ فَاستَعِن باللَّهِ »[1] .

ومنهُ قَولُ الخليل : ﴿ **فَابتَغُوا عندَ اللَّهِ الرِّزقَ** ﴾ [**العنكبوت** : ١٧]، وَلَم يَقُل : فَابتَغُوا الرِّزقَ عندَ اللَّهِ، لأنَّ تَقديمَ الظَّرفِ يُشعِرُ بالاختِصَاصِ وَالحَصرِ، كَأَنَّهُ قال : لا تَبتَغُوا الرِّزقَ إلاَّ عندَ اللَّه، وَقَد قالَ تعالى : ﴿ **وَاسأَلُوا اللَّهَ مِن فَضلِهِ** ﴾ [**النِّساء** : ٣٢] .

وَالإنسَانُ لا بُدَّ لَهُ مِنَ حُصُولِ ما يحتَاجُ إليهِ مِنَ الرِّزقِ وَنَحوِهِ، وَدَفعِ مَا يَضُرُّهُ .

وَكِلا الأَمرَينِ شَرَعَ لَهُ أن يَكُونَ دُعَاؤُهُ للَّه، فَلا يَسأَلُ

---

(١) صحيحٌ كَمَا بيَّنته في : « صحيح كتاب الأذكَارِ وَضَعيفه » (١٢٦٨ / ١٠٠٠) .

رِزقَهُ إلاَّ منَ اللَّه، وَلا يَشتَكي إلاَّ إلَيهِ، كَمَا قَالَ يَعقُوبُ عَلَيهِ السَّلامُ : ﴿ إنَّمَا أشكُو بَثِّي وَحُزنِي إلى اللَّهِ ﴾ [يُوسف : ٨٦] أ . هـ[1].

وَلَقَد ذَكَرَ اللَّه سُبحَانَهُ مُوجِبات العُبُوديَّة في فَوَاتح سُورة النَّحلِ بَعدَ أن قَرَّرَ أنَّ العُبُودِيَّة سَبَب إنزَال الكُتُب وَإرسَالِ الرُّسُل فقال تعالى :

﴿ أتَى أمرُ اللَّهِ فَلا تَستَعجِلُوهُ سُبحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشرِكُونَ * يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بالرُّوحِ من أمرِهِ عَلى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ أن أنذِروا أنَّهُ لا إلهَ إلاَّ أنَا فَاتَّقُونِ * خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرضَ بالحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشرِكُونَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِن نُطفَةٍ فإذا هوَ خَصِيمٌ مُبينٌ * وَالأنعَامَ خَلَقَهَا لَكُم فيها دِفءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنها تَأكُلُونَ * وَلَكُم فيها جِمَالٌ حينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسرَحُونَ * وَتَحمِلُ أثقَالَكُم إلى بَلَدٍ لَم تَكُونوا بَالِغِيهِ إلاَّ بِشِقِّ الأنفُسِ إنَّ رَبَّكُم لَرَؤُوفٌ رَحيمٌ * وَالخَيلَ وَالبِغَالَ وَالحَميرَ لِتَركَبُوها وَزِينَةً وَيَخلُقُ مَا لا تَعلَمُونَ * وَعَلى اللَّهِ قَصدُ السَّبيلِ وَمِنها جَائِرٌ وَلَو شَاءَ لَهَدَاكُم أجمَعِينَ * هوَ الَّذي أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُم مِنهُ شَرَابٌ وَمِنهُ شَجَرٌ وَفيهِ

---

(١) « العُبُودِيَّة » (ص ٨٨ - ٩٣) باختِصَارٍ، وَتَصَرُّفٍ .

تُسيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرعَ وَالزَّيتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأعنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إنَّ في ذلكَ لآيَةً لِقَومٍ يَتفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم اللَّيلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بأمرِهِ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقَومٍ يَعقِلونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُم في الأرضِ مُختَلِفاً ألوَانُهُ إنَّ في ذلِكَ لآيَةً لِقَومٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهوَ الَّذي سَخَّرَ البَحرَ لِتَأكُلُوا مِنهُ لَحماً طَرِيّاً وَتَستَخرِجُونَ مِنهُ حِليَةً تَلبِسُونَهَا وَتَرى الفُلكَ مَوَاخِرَ فيهِ وَلِتَبتَغُوا من فَضلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشكُرُونَ * وَأَلقى في الأرضِ رَوَاسِيَ أن تَمِيدَ بِكُم وَأنهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُم تَهتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبالنَّجمِ هُم يَهتَدُونَ ﴾ [النحل : ١ – ١٦] .

وَتَأمَّل كَيفَ خَتَمَ اللَّه هذهِ الآيَاتِ البيِّنَاتِ بَعدَ ذِكرهِ لأفوَاجِ مَخلُوقَاتِهِ وَنِعَمِهِ :

﴿ أَفَمَن يَخلُقُ كَمَن لا يَخلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَإن تَعُدُّوا نِعمَةَ اللَّهِ لا تُحصُوها إنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَاللَّهُ يَعلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعلِنُونَ * وَالَّذينَ يَدعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخلُقُونَ شَيئاً وَهُم يُخلَقُونَ * أمواتٌ غَيرُ أحيَاءٍ وَمَا يَشعُرُونَ أيَّانَ يُبعَثُونَ ﴾ [النحل : ١٧ – ٢١] .

وَهوَ تَعقيبٌ يأتي في أوَانِهِ، فيُوقِظُ نَفس العَبد ليَتَعَاهَد إيمانه، فإنَّها مُهَيَّئَةٌ للإقرَارِ بِمَضمُونِهِ ... فَلَيسَ هُنَاكَ شَيءٌ

أحَقُّ بالعُبُودِيَّةِ من اللّه لأنَّ العَاقِل يَستَحيلُ أن يُسَوِّيَ بينَ مَن يَخلُق وَمَن لا يَخلُق بَل يُخلَق ... فَمَا يَحتَاجُ الأمرُ أكثر مِن تَذكِيرٍ، فيتَّضِحُ الأمرُ، وَيَتَجلّى اليَقِينُ .

وَكَذلكَ ذَكَرَ رسولُ اللّهِ ﷺ مُوجِباتُ العُبُوديَّةِ فقال :

« إنَّ اللّه عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ يحيى بن زَكَرِيَّا عليه السَّلامُ بخمسِ كلماتٍ أن يَعمَلَ بِهِنَّ وأن يأمُرَ بني إسرائيل أن يعملُوا بِهِنَّ وأنَّهُ كادَ أن يُبطِىءَ بِها .

فقال لَهُ عيسى عليهِ السَّلام : إنَّكَ قَد أُمِرتَ بخمسِ كلماتٍ أن تعملَ بِهِنَّ وَتَأمرَ بني إسرائيلَ أن يعملوا بِهِنَّ، فإمَّا أن تبلغهنَّ أو أن أُبلغهنَّ ؛

فقال : يا أخي إنِّي أخشى إن سَبَقتني أن أُعَذَّب أو يخسف بي .

قال : فَجمَعَ يحيى بن زكريَّا بني إسرائيلَ في بيتِ المَقدِسِ حتَّى امتَلأَ المَسجِد، فقعَدَ على الشرف، فَحَمَدَ اللّه وأثنى عليهِ ثمَّ قال :

إنَّ اللّه أمرَنِي بخمسِ كلمَاتٍ أن أعملَ بِهِنَّ وآمُرَكم أن تعملوا بِهِنَّ :

أوَّلهُنَ : أن تَعبُدوا اللّه وَلا تُشركوا بِهِ شيئاً، فإن مَثَلَ ذلكَ كمثَلِ رجلٍ اشترى عبداً من خالِص ماله بورقٍ أو

ذهبٍ؛ فَجَعَلَ يعمل ويُؤدِّي غَلَّته إلى غير سيِّدِهِ، فأيُّكم يَسرُّهُ أن يَكُونَ عبدهُ كذلك، وأنَّ اللَّه خلَقَكُم ورزقكم فَاعبُدُوه ولا تُشرِكوا بِهِ شيئاً.

وأمَرَكُم بالصَّلاةِ، فإنَّ اللَّه ينصبُ وَجهَهُ لوجهِ عبدِهِ ما لم يَلتَفِت، فإذا صَلَّيتُم فَلا تَلتَفِتوا.

وأمركُم بالصِّيامِ، فإنَّ مثل ذلك كمثل رجلٍ معهُ صُرَّة من مسكٍ في عصابةٍ كلهم يجِدُ ريحَ المِسك، وإنَّ خلوف فم الصَّائم أطيب عندَ اللَّه من ريحِ المِسك.

وَأمركُم بالصَّدَقَةِ، فإنَّ مثل ذلك كمثل رجلٍ أسرَهُ العَدُوّ، فشدُّوا يَديهِ إلى عُنُقِه وقدَّموه ليضربوا عُنقه، وقال لهم: هَل لَكُم أن أفتَدي نَفسي منكُم، فَجَعَلَ يفتَدي نَفسَهُ منهم بالقليلِ وَالكثيرِ حتَّى فَكَّ نَفسَهُ.

وأمركم بذكرِ اللَّه كثيراً، وإنَّ مثلُ ذلك كمثل رجلٍ طلبهُ العَدوُّ سراعاً في أثَرِهِ فأتى حصناً حصيناً، فتحصَّنَ فيهِ، وإنَّ العَبدَ أحصَن ما يَكُون من الشَّيطَان إذا كانَ في ذكرِ اللَّه».

قال: وقال رسولُ اللَّه ﷺ: «وأنا آمُرُكُم بخمسٍ اللَّه أمرَني بِهِنَّ: الجماعة وَالسَّمع وَالطَّاعَة وَالهِجرَة وَالجِهَاد في سبيلِ اللَّه، فإنَّهُ من خَرَجَ عَن الجَمَاعةِ قِيدَ شبر

فقَد خَلَعَ ربقَة الإسلام من عُنُقِهِ إلاَّ أن يراجع، وَمَن دَعا بدعوى الجاهليَّة فَهوَ من جثى جهنَّم ».

قالوا : يا رسول اللّه وإن صَامَ وَصَلَّى .

فقال : « وإن صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسلم، فادعوا المسلمينَ بأسمائِهِم على ما سمَّاهُم اللّه عَزَّ وَجَلَّ المُسلمينَ المُؤمنينَ عِبَادَ اللّه ».

قال ابن كثير رحمهُ اللّه - بَعدَ أن سَاقَه تفسيراً لمعنى قول اللّه تعالى : ﴿ **يا أَيُّهَا النَّاسُ اعبُدوا رَبَّكُم الَّذي خَلَقَكُم وَالَّذينَ من قَبلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة : ٢١] - : هذا حديثٌ حسنٌ[١]، وَالشَّاهِدُ منهُ في هذهِ الآية قوله : « وإنَّ اللّه خَلَقَكُم وَرَزَقَكُم فَاعبُدُوه وَلا تُشرِكوا بِهِ شيئاً »[٢].

قلت : فَجَعَلَ الخَلقَ وَالرِّزقَ مُوجِبَاتِ العُبُوديَّة، فتَدَبَّر.

---

(١) وهوَ حديثٌ صحيحٌ، كما بيَّنتهُ في « صحيح الوابل الصيِّب » (ص ٣٨ - ٤٠) .

وَقَد بَنى ابن قيم الجوزيَّة كتابه « الوابل الصيِّب » عليهِ، وقال فيهِ (ص ٢٢) : « هذا الحديثُ العظِيمُ الشأنِ، الَّذي يَنبَغي لكُلِّ مُسلمٍ حِفظُهُ وتعقُّله » .

قلت : هذهِ وَصيَّةُ إمامٍ تَستَحقُّ الاهتمام، فَاظفر بِها - تَرِبَت يَدَاكَ - تَكُن مِن ذَوي الأفهامِ .

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (١ / ٦٢) .

ثَمَرَةُ العُبُودِيَّة

اعلَم أخَا الإيمان أيَّدَكَ اللَّه بروحٍ مِنهُ : أنَّ تَزكِيَةَ النَّفسِ لَتَفيضَ مَكَارِمَ الأخلاق من عنَاصِرِ بقَاءِ الأمُم عَزِيزَةً قَوِيَّةً .

إنَّمَا الأُمَمُ الأخلاقُ مَا بَقِيَت

فإن هُم ذَهَبت أخلاقُهُم ذَهَبُوا

لذلك، فَأمرُ التَّزكِيَةِ ذُو بَال، لأنَّهُ يُؤَثِّرُ على قِيامِ المُجتمع سَلباً وَإيجاباً، لأنَّ تَزكِيَةَ النُّفُوسِ أصلٌ تَقُومُ عليهِ أوَامِرُ اللَّه في النَّفسِ البشَرِيَّةِ، فإذا طُوِّعَت هذهِ النَّفسُ على الخُلقِ الكَريمِ وَالسُّلُوكِ القَويمِ، فإنَّها رَاغِبَةٌ في تَعظِيمِ شَعَائِرِ اللَّه وَالتِزَامِ مَنهَجِهِ .

ومَن أصدَقُ منَ اللَّه حَديثاً، فَهوَ القَائل : ﴿ **ذلكَ وَمَن يُعَظِّم شَعَائِرَ اللَّهِ فإنَّها مِن تقوى القُلوبِ** ﴾ [**الحج : ٣٢**] .

وَالأخلاقُ الكَريمَةُ صُلبُ الشَّرِيعَة السَّمحَةِ، وَجمَاعُ

الدِّين الَّذي بَعَثَ اللَّه بِهِ مُحَمَّداً ﷺ، فَلا بُدَّ مِن تَطبيعِ النَّفسِ عليها حَتَّى تفلحَ وَتَقُومَ على أمرِ اللَّه .

وَلَمَّا كَانَت هذهِ الحقيقةُ سُنَّةً كَونيَّةً شرعِيَّةً، فإنَّ جَميعَ المُرسَلينَ دَعُوا أقوامَهم إلى تَحقيقِها وَالسَّيرِ على هُداها .

فهذا نُوحٌ عليه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ - أوَّلُ رَسولٍ إلى النَّاسِ - يُخَاطِب قَومَهُ قَائلاً : ﴿ كَذَّبَت قَومُ نُوحٍ المُرسَلينَ * إذ قَالَ لَهُم أخُوهُم نُوحٌ ألا تَتَّقُونَ * إنِّي لَكُم رَسُولٌ أمينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأطِيعُون * وَمَا أسألُكُم عَلَيهِ مِن أجرٍ إن أجرِيَ إلَّا على رَبِّ العَالَمينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأطيعُون ﴾ [الشعراء : ١٠٥ - ١١٠] .

وهذا هُودٌ يُنذِرُ قَومَهُ بالأحقَافِ قَائلاً - كَمَا أخبَرَ اللَّه عنه - : ﴿ كَذَّبَت عَادٌ المَرسَلينَ * إذ قالَ لَهُم أَخُوهُم هُودٌ ألا تَتَّقُونَ * إنِّي لَكُم رَسُولٌ أمينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ و أَطِيعُون * وَمَا أسألُكُم عَلَيهِ مِن أجرٍ إن أجرِيَ إلَّا على رَبِّ العَالَمينَ * أتَبنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُم تَخلَدُونَ * وَإذا بَطَشتُم بَطَشتُم جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأطِيعُون * وَاتَّقُوا الَّذي أمَدَّكُم بأنعَامٍ وَبَنين * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إنِّي أخَافُ عَلَيكُم عَذَابَ يَومٍ عَظِيمٍ ﴾

[الشعراء : ١٢٣ - ١٣٥] .

وكذلكَ صَالح عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ : ﴿ كَذَّبَت ثَمُودُ المَرسَلينَ ۞ إذ قالَ لَهُم أَخُوهُم صَالحٌ ألا تَتَّقُونَ ۞ إنّي لكُم رَسُولٌ أمينٌ ۞ فاتَّقُوا اللَّهَ وَأطِيعُون ۞ وَمَا أسأَلُكُم عَلَيهِ مِن أجرٍ إن أجرِيَ إلَّا على رَبِّ العَالَمينَ ۞ أتتركُونَ مَا هٰهُنَا آمِنِينَ ۞ في جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخلٍ طَلعُها هَضِيمٌ ۞ وَتَنحِتُونَ في الجِبالِ بيُوتاً فَارِهِينَ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأطِيعُون ۞ وَلا تُطِيعُوا أمرَ المُسرِفِينَ ۞ الَّذينَ يُفسِدُونَ في الأرضِ وَلا يُصلِحُونَ ﴾ [الشعراء : ١٤١ - ١٥١] .

ولوط عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ كَذلكَ : ﴿ كَذَّبَت قَومُ لُوطٍ المُرسَلينَ ۞ إذ قالَ لَهُم أَخُوهُم لُوطٌ ألا تَتَّقُونَ ۞ إنّي لَكُم رَسُولٌ أمينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأطِيعُون ۞ وَمَا أسأَلُكُم عَلَيهِ مِن أجرٍ إن أجرِيَ إلَّا على رَبِّ العَالَمينَ ۞ أتَأتُونَ الذُّكرَانَ مِنَ العَالَمينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٠ - ١٦٥] .

وشعَيب عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ : ﴿ كَذَّبَت أصحَابُ الأيكَةِ المَرسَلينَ ۞ إذ قالَ لَهُم شُعَيبٌ ألا تَتَّقُونَ ۞ إنّي لَكُم رَسُولٌ أمينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأطِيعُون ۞ وَمَا أسأَلُكُم عَلَيهِ مِن أجرٍ إن أجرِيَ إلَّا على رَبِّ العَالَمينَ ۞ وَأوفُوا الكَيلَ وَلا

تَكُونوا منَ المُخسِرِينَ * وَزِنُوا بالقِسطَاسِ المُستَقِيمِ * وَلا تُبخِسُوا النَّاسَ أشيَاءَهُم وَلا تَعثَوا في الأرضِ مُفسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذي خَلَقَكُم وَالجِبلَّةِ الأوَّلينَ ... ﴾ الآيات [الشعراء : ١٧٦ - ١٩٠] .

ومُوسى عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ : ﴿ وَالَّذينَ يُمَسِّكُونَ بالكِتَابِ إنَّا لا نُضِيعُ أجرَ المُصلِحينَ * وَإذ نَتقنَا الجَبَلَ فَوقَهُم كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أنَّهُ وَاقِعٌ بِهِم خُذُوا مَا آتينَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذكُرُوا مَا فيهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٠ - ١٧١] .

وقول مُوسى عَليهِ السَّلامُ لفِرعَون، كَمَا أخبَرَ تَعالى عَنهُ : ﴿ فَقُل هَل لَكَ إلى أن تَزكَّى * وَأهدِيَكَ إلى رَبِّكَ فَتَخشَى ﴾ [النَّازعات : ١٨ - ١٩] .

وعيسى عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسى بالبَيِّنَاتِ قالَ قَد جِئتُكُم بالحِكمَةِ وَلأبيِّنَ لَكُن بَعضَ الَّذي تَختَلِفُونَ فيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون ﴾ [الزخرف : ٦٣] .

وقَال تعالى مُخبراً أيضاً عَنهُ : ﴿ وَمُصَدِّقَاً لِمَا بينَ يَدَيَّ مِنَ التَّورَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعضَ الَّذي حُرِّمَ عَلَيكُم وَجِئتُكُم بآيَةٍ مِن رَبِكُم فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون ﴾ [آل عمران : ٥٠] .

وهذا مَا سَارَ عَليهِ جَميعُ المُرسلين؛ كَمَا في قولهِ تعالى : ﴿ **يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعمَلُوا صَالِحَاً إنِّي بِمَا تَعمَلُونَ عَليمٌ ۞ وَإنَّ هذهِ أُمَّتُكُم أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأنَا رَبُّكُم فَاتَّقُون** ﴾ [**المؤمنون : ٥١ – ٥٢**] .

وفي الجُملَةِ فَالتَّقوى هيَ وَصيَّةُ اللَّهِ لجَميعِ خَلقهِ، وَبَعَثَ بِها جَميع رُسُلِهِ، كَمَا في قَولهِ تعالى : ﴿ **وَلَقَد وَصَّينَا الَّذينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبلِكُم وَإيَّاكُم أنِ اتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ [**النِّساء : ١٣١**] .

فإن قَالَ قَائلٌ : هذهِ الآياتُ تَحُضُّ على التَّقوى؛ فَمَا بَالُ تَزكِيَةِ النُّفُوسِ قَد حُشِرَت في مَعنَاها ؟

قُلنا : أَلَم تَعلَّم يا عَبداللَّه أَنَّ تَقوى اللَّه هيَ تَزكِيَةُ النُّفُوسِ شِبراً بِشِبر وَذِرَاعاً بِذِرَاع ؟!

إنَّ تَقوى اللَّه نَبعٌ يَمُدُّ النُّفُوسَ بِمَادَّةِ تَطهِيرها .

وإن شِئتَ أن تَسمَعَ آيَاتِ اللَّه الَّتي تَنتَظِمُ هذهِ المَعَاني : فقولهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ **وَنَفسٍ وَمَا سَوَّاها ۞ فَأَلهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقوَاها ۞ قَد أَفلَحَ مَن زَكَّاها ۞ وَقَد خَابَ مَن دَسَّاها** ﴾ [**الشَّمس : ٧ – ١٠**]، فَهذهِ الآيَاتُ نَصٌّ عَلى أَنَّ العَبدَ يُزَكِّي نَفسَهُ بِتَقوى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ .

وقوله سبحانَهُ وَتعالى : ﴿ فَلا تُزكُّوا أنفُسَكُم هوَ أعلَمُ بِمَن اتَّقَى ﴾ [النَّجم : ٣٢]، وَقوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى الَّذي يُؤتِي مَالَهُ يَتزَكَّى ﴾ [اللَّيل : ١٨]؛ يُبيِّنَانِ لَكَ أنَّ تَزكِيَةَ النُّفُوسِ هيَ تَقوى اللَّه .

وَانظُر إلى قَولِ رَسول اللَّه ﷺ بعَقلِكَ : « اللَّهمَّ آتِ نَفسي تَقوَاها، وَزكِّها أنتَ خَيرُ مَن زكَّاها، أنتَ وَليُّها وَمَولاها »[1] .

يَتَّضِحُ لَكَ :

أنَّ تَزكِيَةِ النَّفسِ البَشرِيَّةِ، وَتَنقِيتها مِن قَبَائحها، وَتَصفيتِها مِن أدرَانِها، وَالسُّمُو بِها إلى مَكَارِمِ الأخلاقِ وَصَالحها : إحدى المُهِمَّات الَّتي بَعَثَ اللَّه مِن أجلِها مُحَمَّداً ﷺ على فَترَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَقَد نَطَقَ بذلكَ الكِتابُ الكَريم وَالسُّنَّةِ المُطهَّرة .

قال تعالى : ﴿ كَمَا أرسَلنا فيكُم رَسُولاً مِنكُم يَتلُو عَلَيكُم آيَاتنا وَيُزكِّيكُم وَيُعَلِّمُكُم الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَا

---

(١) أخرجه مسلم (١٧ / ٤١ نووي) من حديث زَيد بن أرقَم رضي اللّه عنه .

لَم تَكُونوا تَعلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١] .

وقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿ لَقَد مَنَّ اللَّهُ على المُؤمِنينَ إذ بَعَثَ فيهِم رَسُولاً مِن أنفُسِهِم يَتلُو عَلَيهِم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِم وَيُعَلِّمُهُم الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَإن كَانُوا مِن قَبلُ لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

وقال تَبَارَكَ اسمُه : ﴿ هوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنهُم يَتلُو عَلَيهِم آيَاتِه وَيُزَكِّيهِم وَيُعَلِّمُهُم الكِتَاب وَالحِكمَة وَإن كَانُوا مِن قَبلُ لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

ومن ثُمَّ، فَلَقَد كَانَت هذهِ المهمَّة النَّبويَّة رُكناً في دَعوَةِ أبينا إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّل مِنَّا إنَّكَ أنتَ السَّميعُ العَليمُ * رَبَّنا وَاجعَلنا مُسلِمَينِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتنا أُمَّةً مُسلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَنَاسِكَنَا وَتُب عَلَينا إنَّكَ أنتَ التَّوَابُ الرَّحيم * رَبَّنا وَابعَث فيهِم رَسُولاً مِنهُم يَتلُو عَلَيهِم آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُم الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَيُزَكِّيهِم إنَّكَ أنتَ العَزيزُ الحَكيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧ - ١٢٩] .

هذهِ أيُّها المُسلمونَ مِلَّةُ إبراهيم ﷺ وَوَصِيَّتُهُ لبناءِ أُمَّةٍ مُسلمَةٍ، وَمَن أصدَقُ منَ اللَّه قيلاً : ﴿ وَمَن يَرغَب عَن مِلَّةِ

إبراهيمَ إلاَّ مَن سَفِهَ نَفسَهُ وَلَقَد اصطَفينَاهُ في الدُّنيا وإنَّهُ في الآخِرَةِ منَ الصَّالحينَ * إذ قالَ لَهُ رَبُّهُ أسلم قال أسلَمتُ لربِّ العَالمينَ * وَوَصَّى بِها إبراهيمُ بَنيهِ وَيَعقُوبُ يا بَنيَّ إنَّ اللَّهَ اصطَفى لَكُم الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتُم مُسلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٠ - ١٣٤] .

وَأمَّا السُّنَّةُ المُطَهَّرةُ، فَفِيها الكَثيرُ الطَّيِّبُ، كَقَولِهِ ﷺ : « إنَّمَا بُعِثتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ (وَفي رواية : صَالحَ) الأخلاقِ »[1] .

---

(١) صحيح بشواهده :

أخرجهُ البخاري في « الأدَبُ المُفرد » (ص ٤٢)، وأحمد (٢ / ٣٨١)، وَالحاكم (٢ / ٦١٣)، وابن سعد في « الطَّبقات » (١ / ١٩٢)، وَالقضاعي في « مسنَد الشهاب » (١١٦٥)، وَالخرائطي في « مَكارِمِ الأخلاق وَمعاليها » (ص ٢)، وَالخطيبُ البغدادي في « الجامع لأخلاق الرَّاوي » (٤٠) من طريق محمد بن عجلان عن القَعقاع بن حَكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة مَرفُوعاً .

قلت : وَهذا إسنَادٌ حسنٌ .

وَصحَّحهُ الحاكم على شَرطِ مسلم، وَوافقهُ الذَّهبي، لكن مُحمد بن عجلان صَدوق، فَحديثُهُ حَسَنٌ وَلَم يخرج لَهُ مسلم إلاَّ مُتَابَعَةً (ا) .

وَلهُ شَاهدٌ أخرجهُ مالك (٢ / ٩٠٤) بلاغاً، وَمن طَريقهِ ابن سَعد في « الطَّبقَات » (١ / ١٩٣) .

=

أفلا يَدُلُّ هذا كُلُّهُ على أنَّ تَزكِيَةَ النُّفُوس لَها دَورٌ هَامٌ في إنشَاءِ مُجتَمَع الخِلافة الرَّاشِدة على مِنهاج النُّبُوَّة، وَأثَرٌ بَارِز في استِئنَافِ الحَيَاةِ الإسلامِيَّةِ ؟!

فإن قيلَ : هذا الحديثُ في مَيدَانِ الأخلاقِ، فَمَا بالُ تَزكِيَةِ النُّفوسِ ؟!

قلت : ألَيسَت تَزكِيَةُ النُّفُوسِ تَكُونُ بِمَكَارِمِ الأخلاقِ، وَالاستِقَامَةِ على صَالحها، وَالتَّمَسُّك بمَعاليها، وَالدعوةِ إلى حسنها ؟!

وَإن شِئتَ مَزِيدَ بيَانٍ؛ فَاعلَم أنَّ رسول اللَّه ﷺ كانَ قُدوَةً حَسَنَةً، تَتحَرَّكُ بينَ النَّاسِ بمكَارِمِ الأخلاقِ، يَرَونَهُ قَائِمَاً على إتمَامها خَيرَ القيامِ، حَتَّى استَحَقَّ أن يُزكِّيَهُ اللَّه في كِتَابِه وَيشهَد لَهُ وَكَفى باللَّه شَهِيداً، فقال سُبحَانَهُ : ﴿ **وَإنَّكَ لَعَلى خُلقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم : ٤] .

وَقَد تَنَوَّعَت عِبَارَات أهل التَّفسير في تَأوِيل هذهِ الآيَةِ، غَيرَ أنَّ أعدَلَ هذهِ الأقوال وَأصَحَّها مَا ذَكَرَتهُ أُمُّ المؤمنينَ عائشة بنتُ الصِّدِّيق رضي اللَّه عنهما عندما سُئِلَت عَن خُلقِ

=

ولهُ شَاهِدٌ من حديثِ زَيد بن أسلَم مُرسَلٌ، وَآخَر مِن حديثِ جابر بن عبداللّه وَفيهِ ضَعفٌ .

وبالجُملَةِ فَالحَديثُ صحيحٌ بشوَاهِدِهِ، وَاللّه أعلَمُ .

زَوجِها رسول اللّه ﷺ فقالت : « كانَ خُلُقهُ القُرآن »[1]

ومَعنى هذا أنَّهُ ﷺ صَارَ امتِثَالُ القُرآن سجية لَهُ، وَخلقاً تَطبعه، فَمَهمَا أمَرَهُ اللّه في القرآن؛ فعلهُ، ومَهمَا نَهاهُ عنهُ؛ تَرَكَهُ، هذا مَع مَا جَبَلَهُ اللّه عَليهِ منَ الخُلق العظيم وَالسُّلوك القَويم، فَلَم يُذكَر خلقٌ جميلٌ، ونَعتٌ مَحمُودٌ؛ إلاّ ولِرَسول اللّه ﷺ الحَظُّ الأوفرُ، لأنَّهُ لَم تَكُن لَهُ هِمَّةٌ سِوى اللّه تعالى، فاجتَمَعَت فيهِ مَكَارِمَ الأخلاقِ الَّتي أُرسِلَ لأتمَامِها .

وَبهذا يَتَبَيَّن أنَّ الخُلقَ العظيم الَّذي وُصِفَ بِه رسول اللّه ﷺ هوَ الدِّينُ الجَامِعُ لجميعِ مَا أمَرَ اللّه بِهِ وَنَهى عَنهُ مُطلَقَاً، حَتَّى صَارَت المُبَادَرَةُ إلى امتِثَالِ ما يُحِبُّهُ اللّه وَيَرضَاهُ وَاجتناب ما يبغضهُ وَيكرههُ، بِطيبِ نَفسٍ وَانشِراحِ صَدرٍ، وَهذهِ حقيقة التَّقوى، فَقَد كانَ رسول اللّه ﷺ أحسَنَ النَّاسِ خُلُقَاً، وَأتقَاهُم للّه، وَأعلمَهُم بِه .

فإذا كَانَت تَزكِيَةُ النُّفوسِ بتحقيقِ التَّقوى من مُهمَّاتِ الرُّسل الَّتي بُعِثُوا مِن أجلِها، وَقَد شَغَلَت حَيِّزاً كَبيراً في دَعوَةِ رسول اللّه ﷺ وَحياته، فَمَا الَّذي يُوصِلُ إليها، وَيَدُلُّ عليها ؟!

---

(١) أخرجه مسلم (٦ / ٢٥ - نووي) .

إنَّ الَّذي شَرَعَ الغَايَةَ لَم يَنسَ الوَسيلَةَ، فَقَد شَرَعَ اللَّه وَسَائل تَزكِيَة النُّفُوسِ، وَبيَّنَها رسول اللَّه ﷺ إلى هذهِ الغَاية، وَلذلك؛ لَيسَ لتَزكِيَة النُّفُوس أعمَال خَاصَّة بها دُونَ شَعَائِرِ الإسلامِ .

وَعندَ استِقرَاءِ شَعائِر الإسلام كُلِّها وَرَبطها بهذهِ الغَايةِ، نَتبَيَّن أنَّهُ لَيسَ لتَزكِيَة النُفُوس أعمَالٌ خاصَّةٌ من مجموعِ شَرَائِعِ الإسلام، بَل أنَّ الإسلام عَقَائِدَهُ وَأحكَامَهُ نهايتُها التَّقوى وَتَزكِيَة النُّفُوس، لتَستَقيمُ على أمرِ اللَّه أفرَادَاً وَجَماعَات وَمُجتَمَعَات، وَدُونَكَ البَيَانُ :

التَّوحيدُ وَهوَ قُطبُ رَحى الإيمان تَزكِيَةٌ للنُّفُوسِ؛ لأنَّ الاعتِراف بالحقِّ أُسُّ الفَضَائل وَأُم الأخلاق، فَرأسُ الحكمَة مَعرفةُ اللَّه وَعِبَادَتُه وَمَحَبَّتُه وَمَخافَتُه، وَلَيسَ هُنَاكَ حَقٌّ أكبَرُ منَ اللَّه . وَلا أظهَر مِنهُ عندَ كُلِّ ذي مسكة عقلٍ، وَلهذا كَانَ الشِّرْكُ باللَّه عَزَّ وَجَلَّ نَجساً؛ كَمَا قال تعالى : ﴿ **إنَّمَا المُشرِكُونَ نَجَسٌ** ﴾ [**التوبة : ٢٨**] .

والوُضُوءُ طَهَارَةٌ، كَمَا قال تعالى : ﴿ **فيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أن يَتَطَهَّروا وَاللَّه يُحبُّ المُتَطهِّرين** ﴾ [**التوبة : ١٠٨**] .

والغُسلُ وَالتَّيَمُّم طَهَارَة؛ كَمَا قال اللَّه تعالى : ﴿ **يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا قُمتُم إلى الصَّلاةِ فَاغسِلوا وُجُوهَكُم**

وَأيديكُم إلى المَرافِقِ وَامسَحوا بِرؤُوسِكُم وَأرجُلكُم إلى الكَعبَينِ * وَإن كُنتُم جُنُباً فاطَّهَرُوا وَإن كُنتُم مَرضى أو عَلى سَفَرٍ أو جَاءَ أحَدٌ مِنكُم منَ الغَائطِ أو لامَستُم النِّسَاءَ فَلَم تَجِدُوا مَاءً فَتيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فامسَحُوا بِوُجُوهِكُم وَأيديكُم مِنهُ ما يُرِيدُ اللَّه ليَجعَلَ عَلَيكُم مِن حَرَجٍ وَلكن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُم وَلِيُتِمَّ نِعمَتَهُ عَلَيكُم لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦] .

واعتِزَالُ النِّساء في المَحِيض وَالنِّفاسِ طَهَارَةٌ وَزَكَاةٌ، كَمَا قال تعالى : ﴿ وَيَسألُونَكَ عَنِ المَحيضِ قُل هوَ أذىً فَاعتَزِلوا النِّساءَ في المَحيضِ وَلا تَقرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطهُرنَ فإذا تَطَهَّرنَ فَأتُوهُنَّ مِن حَيث أمَرَكُم اللَّه إنَّ اللَّهَ يُحبُّ التَّوَّابينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

وَلذلك جُعِلت أحكَام الوُضُوء وَالغُسل وَالتَّيمُّم في أبوَابِ الطَّهَارةِ مِن كُتُبِ الفِقهِ .

وَالطَّهَارَةُ في كَلامِ اللَّه وَرَسولِهِ تَنتَظِمُ طَهَارَة القَلب وَالجوَارح .

أمَّا طَهَارَةُ القُلوب؛ فَفي قوله تعالى : ﴿ ذلكَ أطهَرُ لِقُلُوبِكُم وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

وأمَّا طَهَارَة الجوَارح؛ فَفي قوله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ

عَلَيكُم مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ [الأنفال : ١١] .

وطَهارَةُ اللجَوارح مقتَرنَة بطَهَارَة القُلوب، لذلك عطف على طَهارَة الجَوارح عصمتهم من رجزِ الشَّيطَان وَالرَّبطِ على القُلُوبِ وَتَثبيتِ الأقدَامِ : ﴿ **وَيذهبَ عَنكُم رِجزَ الشَّيطَانِ وَلِيرَبُط على قُلُوبِكُم وَيُثَبِّت بِهِ الأقدام** ﴾ [**الأنفال : ١١**] .

وبِه نَطَقَ الكتَابُ العَزيز : ﴿ **وَثِيابَكَ فَطَهِّر** ﴾ [**المدثر : ٤**] .

وَالصَّلاةُ تَزكِيَةٌ للنُّفوسِ؛ لأنَّها تُطهِّر النَّفس وَالجَوارِح منَ الفَحشَاءِ وَالمُنكَرِ، قال اللّه تعالى : ﴿ **إنَّ الصَّلاةَ تَنهى عَن الفَحشَاءِ وَالمُنكَرِ** ﴾ [**العنكبوت : ٤٥**] .

والزَّكَاةُ طَهَارَةٌ وَتَزكِيَةٌ، كَمَا في قولِهِ تعالى : ﴿ **خُذ من أموَالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرهُمُ وَتُزَكِّيهِم بِها وَصَلِّ عَلَيهِم إنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُم وَاللَّه سَمِيعٌ عليمٌ** ﴾ [**التوبة : ١٠٣**] .

والصَّومُ تَزكِيَة، كَمَا في قوله تعالى : ﴿ **يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيكُم الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلى الَّذينَ مِن قَبلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ** ﴾ [**البقرة : ١٨٣**] .

والحجُّ تَزكِيَة، كَمَا في قَوله تعالى : ﴿ **الحجُّ أشهُرٌ مَعلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحج فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ**

وَلا جِدَال في الحَجِّ وَمَا تَفعَلوا من خَيرٍ يَعلَمهُ اللَّه وَتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيرَ الزَّادِ التَّقوى وَاتَّقُونِ يا أُولي الألبَابِ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

والنُّسكُ تَزكِيَةٌ، كَمَا في قوله تعالى : ﴿ وَالبُدنَ جَعَلنَاها لَكُم مِن شَعَائِرِ اللَّه لَكُم فيها خَيرٌ فَاذكُروا اسمَ اللَّه عَلَيها صَوَافَّ فإذا وَجَبَت جُنُوبها فَكُلُوا مِنها وَأطعِموا القَانِع وَالمُعتَر كَذلكَ سَخَّرناها لَكُم لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ ﴿ لَن يَنَال اللَّه لُحُومها وَلا دِمَائها وَلكن يَنَاله التَّقوى منكُم كَذلك سَخَّرَها لَكُم لتُكَبِّروا اللَّه على مَا هَدَاكُم وَبَشِّر المُحسِنِينَ ﴾ [الحج : ٣٦ - ٣٧] .

وَمَكَارم الأخلاق تَزكِية، وَالحُكم بمَا أنزلَ اللَّه تَزكِيَة، وَجميع شَعَائر اللَّه تَزكِيَة .

وعلى الجُملَةِ فَتقوى اللَّه بِتَزكِيَة النُّفُوسِ هيَ ثَمَرَةُ العُبُوديَّة، كَمَا في قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ اعبُدُوا رَبَّكُم الَّذي خَلَقَكُم وَالَّذينَ مِن قَبلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١][1] .

---

(١) وانظُر لزَاماً كتابي « مَنهج الأنبياء في تَزكِيَة النُّفُوس »، نَشر دار ابن عفَّان .

عَلامَاتُ العُبُودِيَّة

١ - مَحَبَّةُ اللّه وَرَسُولِهِ .

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله :

« فَاللَّهُ تعالى إنَّمَا خَلَقَ الخَلقَ لعِبَادَتِهِ، الجَامِعَةِ لِكَمَالِ مَحَبَّتِهِ، مَعَ الخُضُوعِ لَهُ وَالانقِيادِ لأمرِهِ .

فَأصلُ العِبادَةِ : مَحَبَّةُ اللَّه، بَل إفرادُهُ بالمَحَبَّةِ، وَأن يَكُونَ الحُبُّ كُلُّهُ للَّه، فَلا يُحِبُّ مَعَهُ سِوَاهُ، وَإنَّمَا يُحِبُّ لأجلِهِ وَفيهِ، كَمَا يُحِبُّ أنبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَمَلائِكَتَهُ وَأولِيَاءَهُ، فَمَحَبَّتُنا لَهُم مِن تَمَام مَحَبَّتِهِ، وَلَيسَت مَحَبَّةً مَعَهُ، كَمَحَبَّةِ مَن يَتَّخِذ مِن دُونِ اللّهِ أندَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّهِ .

وَإذا كَانَت المَحَبَةُ لَهُ هيَ حَقيقة عُبُودِيَّتِه وَسِرُّها، فَهيَ إنَّمَا تَتَحَقَّقُ باتِّبَاعِ أمرِهِ، وَاجتِنَابِ نَهيِهِ، فَعِندَ اتِّبَاعِ الأمرِ وَاجتِنَابِ النَّهيِ تَتَبَيَّن حَقِيقةُ العُبُودِيَّةِ وَالمَحَبَّةِ، وَلذلك جَعَلَ تعالى اتِّبَاعَ رَسُولِهِ عَلَمَاً عَلَيها، وَشَاهِداً لِمَن ادَّعَاها، فقال تعالى :

﴿ قُل إن كُنتُم تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحبِبكُم اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فَجَعَلَ اتِّبَاعَ رَسُولِهِ مَشرُوطاً بِمَحَبَّتِهِم لله، وَشَرْطاً لِمَحَبَّةِ اللَّه لَهم، وَوُجودُ المَشرُوطِ مُمتَنِعٌ بِدُونِ وُجُودِ شَرطِهِ، وتَحَقُّقُهُ بِتَحَقُّقِهِ، فَعُلِمَ انتِفاء المَحَبَّةِ عِندَ انتِفاءِ المُتَابَعَةِ، فَانتِفَاءُ مَحَبَّتِهِم لله لازِمٌ لانتِفَاءِ المُتَابَعَةِ لِرَسولِهِ، وَانتِفَاءُ المُتَابَعَةِ مَلزُومٌ لانتِفَاءِ مَحَبَّةِ اللَّه لَهم، فيَستَحيلُ إذاً ثُبُوتُ مَحَبَّتِهِم لله، وَثُبُوتُ مَحَبَّةِ اللَّه لَهم بِدُونِ المُتَابَعَةِ لِرَسُولِهِ .

وَدَلَّ على أنَّ مُتَابَعَة الرَّسول ﷺ هيَ حُبُّ اللَّه وَرَسولِهِ، وَطَاعَةُ أمرِهِ، وَلا يَكفِي ذلكَ في العُبُوديَّةِ، حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرسُولهُ أحَبَّ إلى العَبدِ مِمَّا سِوَاهُمَا، فَلا يَكُونُ عِندَهُ شَيءٌ أحَبَّ إلَيهِ منَ اللَّه وَرَسُولِهِ، وَمَتى كانَ عندَهُ شَيءٌ أحَبَّ إلَيهِ منهما فَهَذا هوَ الشِّرْكُ الَّذي لا يَغفِرهُ اللَّه لِصَاحِبِهِ ألبَتَّة، وَلا يَهدِيهِ اللَّه .

قال اللَّه تعالى : ﴿ قُل إن كانَ آبَاؤُكُم وَأبنَاؤُكُم وَإخوَانُكُم وَأزوَاجُكُم وَعَشِيرَتُكُم وَأمَوَالٌ اقتَرَفتُمُوها وَتِجَارَةٌ تَخشَونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنَ تَرضَونَهَا أحَبَّ إلَيكُم منَ اللَّه

وَرسُولِهِ وَجِهَادٍ في سَبيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأمرِهِ وَاللَّهُ لا يَهدي القَومَ الفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

فَكُلُّ مَن قَدَّمَ طَاعَةَ أحَدٍ من هَؤُلاءِ على طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسولِهِ، أو قَولَ أحَدٍ منهُم على قَولِ اللَّه وَرسُولِهِ، أو مَرضَاةَ أحَدٍ منهُم على مَرضَاةِ اللَّه وَرسولِهِ، أو خَوفَ أحَدٍ منهُم وَرَجَاءَهُ وَالتَّوَكُّل عَلَيهِ على خَوفِ اللَّه وَرَجَاءِهِ وَالتَّوَكُّل عَلَيهِ، أو مُعَاملَةَ أحَدِهِم على مُعَامَلَةِ اللَّه؛ فَهوَ مِمَّن لَيسَ اللَّه وَرسولهُ أحَبَّ إلَيهِ مِمَّا سِوَاهما، وإن قَالهُ بلسَانِه فَهوَ كَذِبٌ مِنهُ، وَإخبَارٌ بِخِلافِ مَا هوَ عَلَيهِ، وَكَذلكَ مَن قَدَّمَ حُكمَ أحَدٍ على حُكمِ اللَّهِ وَرسُولِهِ، فَذلكَ المُقَدَّمُ أحَبُّ إلَيهِ من اللَّه وَرسُولِهِ .

لكن قَد يَشتَبِهُ الأمرُ على مَن يُقَدِّم قَولَ أحَدٍ أو حكمَه، أو طَاعَتَه أو مَرضَاتَه، ظَنًّا مِنهُ أنَّهُ لا يَأمُرُ وَلا يَحكُمُ وَلا يَقُولُ إلَّا مَا قَالَه الرَّسُول، فَيُطِيعُه، وَيُحَاكِم إلَيهِ، وَيَتَلَقَّى أقوالَه كَذلكَ، فَهذا مَعذُورٌ إذا لَم يَقدِر عَلى غَير ذلكَ، وَأمَّا إذا قَدِرَ على الوُصُولِ إلى الرَّسُولِ وَعَرَفَ أنَّ غَيرَ مَن اتَّبَعَهُ هوَ أولى بِهِ مُطلَقاً، أو في بَعضِ الأمُورِ، وَلَم يَلتَفِت إلى الرَّسُولِ وَلا إلى مَن هوَ أولى بِهِ، فَهذا الَّذي يُخَافُ عَلَيهِ، وَهوَ دَاخِلٌ تَحتَ الوَعيدِ، فإن استَحَلَّ عُقُوبَةَ مَن خَالَفَهُ وَأذَلَّهُ، وَلَم يُوَافِقهُ على

اتِّبَاعِ شَيخِهِ، فَهوَ مِنَ الظَّلَمَةِ المُعتَدينَ، وقَد جَعَلَ اللَّه لِكُلِّ شَيءٍ قَدْراً »[1] .

٢ - تَعظِيمُ شَعَائِرِ اللَّه وَحُرمَاتِه .

قال تعالى : ﴿ **ذلكَ وَمَن يُعَظِّم حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهوَ خَيرٌ لَهُ عِندَ رَبِّهِ** ﴾ [الحج : ٣٠] .

وقال : ﴿ **ذلكَ وَمَن يُعَظِّم شَعَائِرَ اللَّهِ فإنَّهَا مِن تَقوى القُلُوبِ** ﴾ [الحج : ٣٢] .

قال ابن قيِّم الجوزيَّة رحمه اللَّه :

« وَأمَّا عَلامَات تَعظِيم المَنَاهي : فَالحِرصُ على التَّبَاعُد مِن مَظَنِّهَا وَأسبَابِها وَمَا يَدعُو إلَيها، وَمُجَانَبَةُ كُلِّ وَسِيلَةٍ تُقَرِّبُ مِنها، كَمَن يَهرُبُ مِنَ الأمَاكِنِ الَّتي فيها الصُّوَرُ الَّتي تَقَعُ فيها الفِتنَةُ خَشيَةَ الافتِتَانِ بِها، وَأن يَدَعَ مَا لا بَأسَ بِه حَذَراً مِمَّا بِه بأس، وَأن يُجَانِبَ الفُضُولَ في المُبَاحَثَاتِ خَشيَةَ الوُقُوعِ في المَكرُوهِ، وَمُجَانَبَة مَن يُجَاهِرُ بارتِكَابِها وَيُحَسِّنُها وَيَدعُو إلَيها، وَيَتَهَاوَنُ بِها، وَلا يُبَالي مَا رَكِبَ منها، فإنَّ مُخَالَطَةَ مِثل هذا دَاعِيَةٌ إلى سَخطِ اللَّه تعالى وَغَضَبِه، وَلا يُخَالِطُهُ إلاَّ مَن سَقَطَ مِن قَلبِهِ تَعظيمُ اللَّه تعالى وَحُرُمَاتِه .

---

(١) « مدارج السالكين » (١ / ٩٩ - ١٠٠) .

ومِن عَلامَاتِ تَعظِيم النَّهي : أن يَغضَبَ للَّه عَزَّ وَجَلَّ إذا انتُهِكَت مَحارِمُه، وَأن يَجِدَ في قَلبِهِ حَزَناً وَكَسرَةً إذا عُصِيَ اللَّه تعالى في أرضِهِ، وَلَم يَضطلع بإقَامَةِ حُدُودِهِ وَأَوَامِرِهِ، وَلَم يَستَطِع هوَ أن يُغَيِّرَ ذلكَ .

وَمِن عَلامَاتِ تَعظِيم الأمرِ وَالنَّهي : أن لا يَستَرسِلَ مَعَ الرُّخصَةِ إلى حَدٍّ يَكُون صَاحِبُهُ جَافِياً غَير مستَقيم عَلى المَنهَج الوَسَطِ .

مِثَالُ ذلكَ : أنَّ السُّنَّة وَرَدَت بالإبرَاد بالظُّهرِ في شِدَّةِ الحَرِّ، فَالتَّرَخُّصُ الجَافي أن يُبرِدَ إلى فَوَاتِ الوَقتِ، أو مُقَارَبَةِ خُرُوجِهِ، فيَكُونُ مُتَرَخِّصاً جَافِياً .

وَحِكمَةُ هذهِ الرُّخصَة أنَّ الصَّلاةَ في شِدَّةِ الحَرِّ تَمنَعُ صَاحِبَها مِنَ الخُشُوعِ وَالحُضُورِ، وَيَفعَلُ العِبَادَةَ بِتَكَرُّهٍ وَضَجَرٍ، فَمن حِكمَتِهِ ﷺ أن أَمَرَهُم بتَأخِيرِها حَتَّى يَنكَسِرَ الحَرُّ، فيُصَلِّي العَبدُ بِقَلبٍ حَاضِرٍ، وَيَحصُلُ لَهُ مَقصُودُ الصَّلاةِ منَ الخُشُوعِ وَالإقبَالِ على اللَّه تعالى .

وَمن هذا نَهيه ﷺ أن يُصَلِّي بِحَضرَةِ الطَّعَامِ، أو عِندَ مُدَافَعَة البَولِ وَالغَائِطِ، لتَعَلُّق قَلبه مِن ذلكَ بِمَا يُشَوِّشُ عَليهِ مَقصُودَ الصَّلاةِ، وَلا يُحَصِّلُ المُرَادَ مِنها .

فَمن فِقهِ الرَّجُلِ في عِبادَتِه أن يُقبِلَ على شُغلِه فيَعمَلُه،

ثُمَّ يُفرِّغُ قَلبَهُ للصَّلاةِ، فيَقُومُ فيها وَقَد فرَغَ قَلبُهُ للَّه تعالى، وَنصَبَ وَجهَهُ لَهُ، وَأقبَلَ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَيهِ، فَرَكعَتَانِ مِن هذهِ الصَّلاةِ يُغفرُ للمُصَلِّي بِهِمَا مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِهِ.

وَالمَقصُود أن لا يَتَرَخَّص تَرَخُّصاً جَافياً.

وَمِن ذلكَ أنَّهُ رَخَّصَ للمُسَافِر في الجَمع بينَ الصَّلاتَينِ عندَ العُذرِ، وَتَعَذُّرِ فِعلِ كُلِّ صَلاةٍ في وَقتِها لِمُواصَلَةِ السَّيرِ، وَتَعَذُّر النُّزُولِ أو تَعَسُّرِهِ عَليهِ، فإذا قَامَ في المَنزِلِ اليَومَينِ وَالثَّلاثَةِ، أو أقَامَ اليَومَ، فَجمعُه بينَ الصَّلاتَينِ لا مُوجِبَ لَهُ لِتَمَكُّنِهِ من فِعلِ كُلِّ صَلاةٍ في وَقتِها مِن غَيرِ مَشَقَّةٍ، فَالجَمعُ لَيسَ سُنَّةً رَاتِبَةً كَمَا يَعتَقِدُ أكثَرَ المُسَافِرِينَ أنَّ سُنَّةَ السَّفَرِ الجَمعُ، سَوَاء وُجِدَ عُذرٌ أم لَم يُوجَد، بَل الجَمعُ رُخصَةٌ، وَالقَصرُ سُنَّةٌ رَاتِبَةٌ، فَسُنَّةُ المُسَافِرِ قَصرُ الرُّبَاعِيَّةِ، سَوَاء كانَ لَهُ عُذرٌ أو لَم يَكُن، وَأمَّا جَمعُهُ بينَ الصَلاتَينِ، فَحَاجَةٌ وَرُخصَةٌ، فَهذا لَونٌ، وَهذا لَونٌ.

وَمن هذا: أنَّ الشِّبَعَ في الأكلِ رُخصَةٌ غَيرُ مُحَرَّمَة، فَلا يَنبَغي أن يَجفُوَ العَبدُ فيها حَتَّى يَصِلَ بِه الشِّبَعُ إلى حَدِّ التُّخمَةِ وَالامتِلاءِ، فيَتَطَلَّب مَا يَصرِف بِهِ الطَّعَام، فيَكُون هَمُّهُ بَطنُهُ قَبلَ الأكلِ وَبَعدَهُ، بَل يَنبَغي للعَبد أن يَجُوعَ وَيَشبَعَ، وَيَدَعَ الطَّعَامَ وَهوَ يَشتَهِيه، وَميزَانُ ذلكَ قولُ النَّبِيِّ ﷺ:

« ثُلُثٌ لطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ »[1] .

وَلا يَجعَل الثَّلاثَةَ الأثلاث كُلها للطَّعَام وَحده .

وَأمَّا تَعريضُ الأمرِ وَالنَّهي للتَّشديد الغَالي، فَهوَ كَمَن يَتَوَسوَسُ في الوُضُوءِ مُتَغَالِياً فيهِ حَتَّى يَفُوتَ الوَقتُ، أو يُرَدِّد تَكبيرَة الإحرَام إلى أن تَفُوتَهُ مَعَ الإمَامِ قرَاءَة الفَاتِحَة، أو يَكَادُ تَفُوتَهُ الرَّكعَةُ، أو يَتَشَدَّد في الوَرَعِ الغالي حَتَّى لا يَأكُل شَيئاً من طَعَامِ عَامَّةِ المُسلمينَ خَشيَةَ دُخُولِ الشُّبُهَاتِ عَلَيهِ .

وَلَقَد دَخَلَ هذا الوَرَعُ الفَاسِد عَلى بَعضِ العُبَّادِ الَّذينَ نَقَصَ حَظُّهُم منَ العِلمِ، حَتَّى امتَنَعَ أن يَأكُلَ شَيئاً مِن بِلادِ الإسلامِ، وَكان يَتَقَوَّتَ بِمَا يُحمَلُ إلَيهِ من بِلادِ النَّصَارى، وَيَبعَثُ بالقَصدِ لتَحصِيل ذلك، فَأوقَعَهُ الجَهلُ المُفرِطُ، وَالغُلُوُّ الزَّائدُ في إسَاءَةِ الظَّنِّ بالمُسلمين، وَحُسنِ الظَّنِّ بالنَّصَارى، نَعُوذُ بالله منَ الخُذلانِ .

---

(١) أخرجَهُ الترمذي (٢٣٨٠) ، وَابن ماجه (٣٣٤٩)، وَأحمد (١٣٢)، وَالحاكم (٤ / ١٢١)، وَابن حبان (١٣٤٩)؛ مِن طُرُقٍ عَن يحيى بن جَابر الطَّائي عن المقدَام بن مَعدي كَرب مَرفُوعاً .

قلت : صَحَّحَهُ الترمذي وَالذَّهبي - وَسَكَتَ عنه الحَاكم - وَهوَ كَمَا قَالا ، فإنَّ يَحيى بن جَابر الطَّائي ثقَة، وَقَد صَرَّحَ بالسَّمَاعِ عَن المِقدَام عندَ أحمَد .

فَحقيقةُ التَّعظيم للأمر وَالنَّهي أن لا يُعَارَضَا بِتَرَخُّصٍ جَافٍ، وَلا يُعَرَّضَا لِتَشديدٍ غَالٍ، فإنَّ المَقصُودَ هوَ الصِّرَاطُ المُستَقيمُ المُوصِلُ إلى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ بِسَالِكِهِ .

وَمَا أمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بأمرٍ إلاَّ وَللشَّيطَانِ فيهِ نَزغتَانِ : إمَّا تَقصِيرٌ وَتَفريطٌ، وإمَّا إفرَاطٌ وَغُلُوٌّ، فَلا يُبَالي بِمَا ظَفِرَ من الخَطيئتَينِ، فإنَّهُ يأتي إلى قَلبِ العَبدِ فيُشَامُّه .

فإن وَجَدَ فيهِ فُتُوراً وَتَوَانياً وَتَرخِيصاً أخَذَهُ مِن هذهِ الخُطَّةِ، فَثَبَّطَهُ وَأقعَدَهُ، وَضَرَبَهُ بالكَسَلِ وَالتَّوَاني وَالفُتُورِ، وَفَتَحَ لَهُ أبوابَ التَّأويلات وَالرَّجَاءِ وَغَير ذلك، حَتَّى رُبَّمَا تَرَكَ العَبدُ المَأمُور جُملَةً .

وَإن وَجَدَ عندَهُ حَذَراً وَجِدَّاً، وَتَشمِيراً وَنَهضَةً، وَأَيِسَ منَ هذا البَابِ، أمَرَهُ بالاجتِهَادِ الزَّائِد، وَسَوَّلَ لَهُ أنَّ هذا لا يَكفيكَ، وَهِمَّتُكَ فَوقَ هذا، وَيَنبَغي لَكَ أن تَزيدَ على العَامِلينَ، وَأن لا تَرقُدَ إذا رَقَدُوا، وَلا تُفطِرَ إذا فَطَرُوا، وَلا تَفتُرَ إذا فَتَرُوا، وَإذا غَسَلَ أحَدُهُم يَدَيهِ وَوَجهَهُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فاغسِلِ أنتَ سَبعاً، وَإذا تَوَضَّأَ للصَّلاةِ، فَاغتَسِلِ أنتَ لَها، وَنَحوِ ذلكَ منَ الإفرَاطِ وَالتَّعَدِّي، فيَحمِلُهُ على الغُلُوِّ وَالمُجَاوَزَةِ وَتَعَدِّي الصِّرَاطَ المُستَقيم، كَمَا يَحمِلُ الأوَّلَ على التَّقصِيرِ دُونَه وَأن لا يَقْرَبَهُ .

وَمَقصُودُهُ مِنَ الرَّجُلَينِ إخرَاجُهُمَا عن الصِّرَاطِ المُستَقيم : هذا بأن لا يَقْرَبَهُ وَلا يَدنُو مِنهُ، وَهذا بأن يُجَاوِزَهُ وَيَتَعَدَّاهُ .

وَقَد فُتِنَ بِهذا أكثَرُ الخَلقِ، وَلا يَنجي مِن ذلكَ إلَّا عِلمٌ رَاسِخٌ، وَإيمانٌ، وَقُوَّةٌ على مُحَارَبَتِهِ وَلُزُوم الوَسَطِ، وَاللَّهُ المُستَعَانُ .

وَمِن عَلامَاتِ تعظيم الأمرِ وَالنَّهي : أن لا يُحمَلَ الأمرُ على عِلَّةٍ تُضعِفُ الانقِيَادَ وَالتَّسليمَ لامرِ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، بَل يُسَلِّمُ لأمرِ اللَّه تعالى وَحُكمِهِ، مِمتَثِلاً مَا أمَرَ اللَّه بِه، سَوَاءٌ ظَهَرَت لَهُ حِكمَتُهُ أو لَم تَظهَر، فإن ظَهَرَت لَهُ حِكمَةُ الشَّرعِ في أمرِهِ وَنَهيِهِ، حَمَلَهُ ذلكَ على مَزِيدِ الانقِيَادِ وَالتَّسليم، وَلا يَحمِلُهُ ذلكَ على الانسِلاخِ مِنهُ وَتَركه، كَمَا حَمَلَ ذلكَ كَثيرٌ من زَنَادِقَةِ الفُقَرَاءِ وَالمُنتَسِبِينَ إلى التَّصَوُّفِ .

فإنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ شَرَعَ الصَّلَوَاتِ الخَمسِ إقَامَةً لِذِكرِهِ، وَاستِعمَالاً للقَلبِ وَالجَوَارِحِ وَاللِّسَانِ في العُبُودِيَّةِ، وَإعطَاء كُلٍّ مِنها قِسطَهُ مِنَ العُبُودِيَّةِ الَّتي هيَ المَقصُودُ بِخَلقِ العَبدِ، فَوُضِعَت الصَّلاةُ على أكمَلِ مَرَاتِبِ العُبُودِيَّةِ .

فإنَّ اللَّه سُبحَانَهُ وتعالى خَلَقَ هذا الآدَمِيَّ، وَاختَارَهُ من بَينِ سَائِرِ البَرِيَّةِ، وَجَعَلَ قَلبَهُ مَحَلَّ كُنُوزِهِ مِنَ الإيمانِ،

وَالتَّوحيدِ، وَالإخلاصِ، وَالمَحَبَّةِ، وَالحَياءِ، وَالتَّعظِيمِ، وَالمُرَاقَبَةِ، وَجَعَلَ ثَوَابَهُ إذا قَدِمَ علَيهِ أكمَلَ الثَّوَابِ وَأفضَلَه، وَهوَ النَّظَرُ إلى وَجهِهِ، وَالفوزُ بِرِضوَانِه، وَمُجاوَرَتُه في جَنَّتِهِ، وَكَانَ مَع ذلكَ قَد ابتَلاهُ بالشَّهوَةِ وَالغَضَبِ وَالغَفلَةِ، وَابتَلاهُ بِعَدُوِّهِ إبليس لا يَفتُر عَنهُ، فَهوَ يَدخُل عَليهِ منَ الأبوابِ الَّتي هيَ مِن نَفسِهِ وَطَبعِهِ، فَتَميلُ نَفسُهُ مَعَهُ، لأنَّهُ يَدخُلُ عَليها بِمَا تُحِبُّ، فيتَّفِق هوَ وَنَفسُهُ وَهَوَاهُ على العَبدِ: ثَلاثَةٌ مَسلَّطُونَ آمِرُونَ، فيَبعَثُونَ الجَوارِحَ في قَضَاءِ وَطَرِهِم، وَالجَوَارِحُ آلَةٌ مُنقَادَةٌ، فَلا يُمكِنُها إلَّا الانبِعَاث، فَهذا شَأنُ هذِهِ الثَّلاثَةِ، وَشَأنُ الجَوارِح، فَلا تَزَالُ الجَوَارِحُ في طَاعَتِهِم كَيفَ أمَرُوا وَأينَ يَمَّمَوا .

هذا مُقتَضَى حَالِ العَبدِ، فَاقتَضَت رَحمَةُ رَبِّهِ العَزِيزِ الرَّحِيمِ بِه أن أَعَانَهُ بِجُندٍ آخَر، وَأمَدَّهُ بِمَدَدٍ آخر يُقَاوِمُ بِه هذا الجُندَ الَّذي يُرِيدُ هَلاكَهُ، فَأرسَلَ إلَيهِ رَسُولَهَ، وَأنزَلَ عَلَيهِ كِتَابَهُ، وَأيَّدَهُ بِمَلَكٍ كَرِيم يُقَابِلُ عَدُوَّهُ الشَّيطَان، فإذا أمَرَهُ الشَّيطَانُ بأمرٍ، أمَرَهُ المَلَكُ بأمرِ رَبِّه، وَبيَّنَ لَه ما في طَاعَةِ العَدُوِّ منَ الهلاكِ، فَهذا يَلُمُّ بِه مَرَّةً، وَهذا مَرَّةً، وَالمَنصُورُ مَن نَصرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَالمَحفُوظُ مَن حَفِظَهُ اللَّه تعالى .

وَجَعَلَ لهَ مُقَابِل نَفْسِهِ الأَمَّارَةِ نَفساً مُطمَئِنَّةً، إذا أمَرَتهُ النَّفسُ الأمَّارَةُ بالسُّوءِ، نَهَتهُ عنهُ النَّفسُ المُطمَئِنَّةُ، وَإذا نَهَتهُ الأمَّارَةُ عَن الخَيرِ، أمَرَتهُ بِه النَّفسُ المُطمَئِنَّةُ، فَهوَ يُطيعُ هذهِ مَرَّةً، وَهذهِ مَرَّةً، وَهوَ الغَالِبُ عَليهِ مِنها، وَرُبَّمَا انقَهرت إحدَاهُمَا بالكُلِّيَّةِ قَهراً لا تَقُومُ مَعَهُ أبَداً .

وَجَعَلَ له مُقَابِل الهَوى الحَامِلِ لَهُ على طَاعَةِ الشَّيطَانِ وَالنَّفسِ الأمَّارَةِ نُوراً وَبَصيرَةً وَعَقلاً يَرُدُّهُ عَن الذَّهَابِ مَع الهَوى، فَكُلَّمَا أرَادَ أن يَذهَبَ مَع الهَوى نَادَاهُ العَقلُ وَالبَصيرَةُ وَالنُّورُ : الحَذَرَ الحَذَرَ؛ فإنَّ المَهَالِكَ وَالمَتَالِفَ بيَنَ يَدَيك، وَأنتَ صَيدُ الحَرامِيَّةِ، وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ إن سِرتَ خَلفَ هذا الدَّليل .

فَهوَ يُطيعُ النَّاصِحَ مَرَّةً، فيُبَيِّنُ لَهُ رُشدَهُ وَنُصحَهُ، وَيَمشي خَلفَ دَليلِ الهَوى مَرَّةً؛ فيَقطَعُ عَليهِ الطَّريقُ، وَيُؤخَذُ مَالهُ، وَتُسلَبُ ثِيَابُه، فيَقول : تُرى مِن أينَ أتيتُ ؟

وَالعَجَبُ أنَّهُ يَعلَمُ مِن أينَ أتِي، وَيَعرِفُ الطَّريقَ الَّتي قُطِعَت عَليهِ وَأُخِذَ فيها، وَيَأبى إلَّا سُلُوكَها، لأنَّ دَليلَها قَد تَمَكَّنَ مِنهُ، وَتَحَكَّمَ فيهِ، وَقَوِيَ عَلَيهِ، وَلَو أضعَفَهُ بالمُخَالَفَةِ لهُ، وَزَجَرَهُ إذا دَعَاهُ، وَمُحَارَبته إذا أرَادَ أخذَهُ، لَم يَتَمَكَّنَ مِنهُ، وَلكن هو مَكَّنَهُ مِن نَفسِهِ، وَهوَ أعطَاهُ يَدَهُ،

فَهوَ بِمَنزِلَةِ الرَّجُلِ يَضَعُ يَدَهُ في يَدِ عَدُوِّهِ، فيُبَاشِرُهُ ثُمَّ يَسُومُهُ سُوءَ العَذَابِ، فَهوَ يَستَغيثُ فَلا يُغَاث، فَهكَذا يَستَأسِرُ للشَّيطَانِ وَالهَوى وَلِنَفسِهِ الأمَّارَةِ، ثُمَّ يَطلُبُ الخَلاصَ، فيَعجَزُ عَنهُ .

فَلَمَّا أن بُلِيَ العَبدُ بِمَا بُلِيَ بِه، أُعينَ بالعَسَاكِرِ وَالعُدَدِ وَالحُصُونِ، وَقيلَ : قَاتِل عَدُوَّكَ وَجَاهِدهُ، فَهذِه الجُنُودُ خُذ مِنها مَا شِئتَ، وَهذِه الحُصُونُ تَحَصَّن بِأيِّ حِصنٍ شِئتَ مِنها، وَرَابِط إلى المَوتِ، فَالأمرُ قَريبٌ، وَمُدَّةُ المُرَابَطَةِ يَسيرَةٌ جِدًّا، فَكَأنَّكَ بالمَلِكِ الأعظَمِ، وَقَد أرسَلَ إلَيكَ رُسُلَه، فَنَقَلُوكَ إلى دَارِهِ، وَاستَرَحتَ مِن هذا الجِهَادِ، وَفُرِّقَ بينَكَ وَبينَ عَدُوِّكَ، وَأُطلِقتَ في دَارِ الكَرَامَةِ تَتَقَلَّبُ فيها كَيفَ شئتَ، وَسُجِنَ عَدُوُّكَ في أصعَبِ الحُبُوسِ وَأنتَ تَرَاهُ .

فالسِّجنُ الَّذي كَانَ يُريدُ أن يُودِعَكَ فيهِ فقَد أُدخِلَه، وَأُغلِقَت عَليهِ أبوَابُه، وَأيسَ مِن الرَّوحِ وَالفَرَجِ، وَأنتَ فيمَا اشتَهَت نَفسُكَ، وقَرَّت عَينُكَ، جَزَاءً على صَبرِكَ في تِلكَ المُدَّةِ اليَسيرَةِ، وَلُزُومِك الثَّغرَ للرِّبَاطِ، وَمَا كَانَت إلاَّ سَاعَةً ثُمَّ انقَضَت، وَكَأنَّ الشِّدَّةَ لَم تَكُن .

فإن ضَعفَت النَّفسُ عَن مُلاحَظَة قِصرِ الوَقتِ وَسُرعَةِ انقِضَائِهِ، فَليَتَدَبَّر قولَهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ كَأَنَّهُم يَومَ يَرَونَ

مَا يُوعَدُونَ لَم يَلبَثُوا إلاَّ سَاعَةً من نَهَارٍ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

وقوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ كَأَنَّهُم يَومَ يَرَونَها لَم يَلبَثُوا إلاَّ عَشِيَّةً أو ضُحَاها ﴾ [النَّازعات : ٤٦] .

وقوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ قالَ كَم لَبِثتُم في الأرضِ عَدَدَ سِنِينَ قالوا لَبِثنَا يَوماً أو بَعضَ يَومٍ فاسأَل العَادِّينَ قالَ إن لَبِثتُم إلاَّ قليلاً لَو كُنتُم تَعلَمُونَ ﴾ [المؤمنونَ : ١١٢] .

وقوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَومَ يُنفَخُ في الصُّورِ وَنَحشُرُ المُجرِمينَ يَومَئِذٍ زُرقاً * يَتَخَافَتُونَ بينَهُم إن لَبِثتُم إلاَّ عَشراً نَحنُ أعلَمُ بِمَا يَقُولونَ * إذ يَقُولُ أمثَلُهُم طَرِيقَةً إن لَبِثتُم إلاَّ يَوماً ﴾ [طه : ١٠٢ – ١٠٤] .

وَخَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ أصحابَهُ يَوماً، فَلَمَّا كَانَت الشَّمسُ على رُؤُوسِ الجِبالِ، وَذلِكَ عندَ الغُرُوبِ قال :

« إنَّهُ لَم يَبقَ مِنَ الدُّنيا فيمَا مَضَى إلا كَمَا بَقِيَ من يَومِكُم هذا فيمَا مَضَى مِنهُ »(١) .

---

(١) أخرَجَهُ أحمَد (٢ / ١٣٣) : ثَنا إسماعيل بن عُمر : حدثني كَثير بن زَيد عن المُطَّلب بن عبدالله عن ابن عُمَر وَذَكَرَهُ مَرفُوعاً .

قلت : وَهذا إسنادٌ فيهِ انقِطَاعٌ ؛ المُطَّلب بن عبدالله لَم يَسمَع من =

فَليتَأمَّل العَاقِلُ النَّاصِحُ لِنفسِهِ هذا الحَديثَ، وَليَعلَم أي شَيءٍ حَصَلَ لهُ من هذا الوَقتِ الَّذي قَد بَقِيَ منَ الدُّنيا بأسرِها، ليَعلَم أنَّهُ في غُرُورٍ، وَأضغَاثِ أحلامٍ، وَأنَّه قَد بَاعَ سَعَادَةَ الأبَدِ وَالنَّعيمِ المُقيمِ بِحَظٍّ خَسيسٍ لا يُسَاوي شَيئاً.

وَلَو طَلَبَ اللَّهَ تعالى وَالدَّارَ الآخِرَةِ لأعطَاهُ ذلكَ الحَظَّ هَنيئاً مَوفُوراً وَأكمَلَ مِنهُ.

وَالمَقصُودُ أنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ قَد أمَدَّ العَبدَ في هذهِ المُدَّةِ اليَسيرَةِ بالجُنُودِ، وَالعَدَدِ، وَالأمدَادِ، وَبيَّنَ لَهُ بِمَاذَا يُحَرِّرُ نَفسَهُ من عَدُوِّهِ، وبمَاذا يَفْتَكُّ نَفسَهُ إذا أُسِرَ»[1].

=

ابن عُمَر رضي اللَّه عنهما.

وَلَهُ شَاهِدٌ من حديث أبي سَعيد الخدريِّ رضي اللَّه عنه.

أخرجَهُ الترمذي (٢١٩٠)، وَأحمد (٣ / ١٩) من طَريق علي بن زَيد بن جدعان عن أبي نَضرَةَ عنه مَرفُوعاً.

قلت: وَهذا إسنَادٌ فيهِ ضَعفٌ، لأنَّ عَلي بن زَيد ضَعيف، وَلكن يُعتَبَر بِهِ.

فَالحديثُ حسنٌ بشَواهِدِهِ، وَاللَّه أعلَمُ.

(١) «الوَابِلُ الصَّيِّبُ» (ص ١٥ - ٢٢).

فضائل العبوديّة من كلام ربّ البريّة

١ - جَعَلَ اللَّه البشَارَةَ المُطلَقَةَ لعِبَادِهِ، فقال : ﴿ فَبَشِّر عِبَادِ * الَّذينَ يَستَمِعُونَ القَولَ فيَتَّبِعُونَ أحسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذينَ هَدَاهمُ اللَّه وَأُولَئِكَ هُم أُولوا الألبَابِ ﴾ [الزمر : ١٧ - ١٨] .

٢ - وَجَعَل اللَّه سُبحانَهُ الأمنَ المُطلَق لَهُم، فقال : ﴿ يا عِبَادِ لا خَوفٌ عَلَيكُم اليَومَ وَلا أنتُم تَحزَنُونَ * الَّذينَ آمَنُوا بآيَاتِنا وكَانوا مُسلِمينَ ﴾ [الزخرف : ٦٨ - ٦٩] .

٣ - وَعَزَلَ اللَّه سُبحَانهُ الشَّيطَانَ عَن سُلطَانِهِ عَنهُم خَاصَّةً، وَجَعَلَ سُلطَانَهُ عَلى مَن تَوَلَّاهُ وَأشرَكَ بِه، فقال : ﴿ إنَّ عِبَادي لَيسَ لَكَ عَلَيهِم سُلطَان إلَّا مَن اتَّبَعَكَ منَ الغَاوِينَ ﴾ [الحجر : ٤٢] .

وقال : ﴿ إنَّهُ لَيسَ لَهُ سُلطَانٌ عَلَى الَّذينَ آمَنُوا وَعَلى

رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ * إنَّمَا سُلطَانُهُ عَلى الَّذينَ يَتَوَلَّونَهُ وَالَّذينَ هُم مُشرِكُونَ ﴾ [النَّحل : ٩٩ – ١٠٠] .

٤ – وَأورثَهُم جَنَّات عَدنٍ، فقال : ﴿ جَنَّاتِ عَدنٍ الَّتي وَعَدَ الرَّحمَنُ عِبَادَهُ بالغَيبِ إنَّهُ كَانَ وَعدُهُ مَأتِيّاً * لا يَسمَعُونَ فيها لَغواً إلَّا سَلاماً وَلَهُم رِزقُهُم فيها بُكرَةً وَعَشِيّاً * تِلكَ الجَنَّةُ الَّتي نُورِثُ من عِبَادِنا مَن كَانَ تَقِيّاً ﴾ [مَريم : ٦١ – ٦٣] .

٥ – وَعَدَهمُ بالنَّصر في الحَيَاة الدُّنيا على الكَافرينَ، فقال : ﴿ وَلَقَد سَبَقَت كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنا المُرسَلينَ * أنَّهُم هُم المَنصُورُونَ * وَإنَّ جُندنا لَهُم الغَالِبُونَ ﴾ [الصَّافَّات : ١٧١ – ١٧٣] .

٦ – وَوَعَدَهُم بالتَّمكين في الأرض، فقال : ﴿ قَالَ مُوسى لِقَومِهِ استَعِينُوا باللَّهِ وَاصبِروا إنَّ الأرضَ للَّهِ يُورِثُها مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ للمُتَّقينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

وقال : ﴿ وَلَقَد كَتَبنَا في الزَّبُورِ مِن بَعدِ الذِّكرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها عِبَاديَ الصَّالحُونَ * إنَّ في ذلكَ لَبَلاغاً لِقَومٍ عَابِدينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥ – ١٠٦] .

العبودية دعوة الرُّسُل عليهم الصَّلاةُ والسَّلام جميعاً

وجَميعُ الرُّسُل إنَّمَا دَعُوا لعُبُودِيَّةِ اللَّه من أوَّلِهِم ألى خَاتَمِهِم، كَمَا أخبَرَ اللَّه عَن نُوحٍ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ : ﴿ **لَقَد أرسَلنا نُوحَاً إلى قَومِهِ فقَالَ يَا قَومِ اعبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِن إلَهٍ غَيرُه** ﴾ [الأعراف : ٥٩ ، المُؤمنون : ٢٢] .

وقَال تعالى : ﴿ **إنَّا أرسَلنَا نُوحَاً إلى قَومِهِ أن أنذِر قَومَكَ مِن قَبلِ أن يَأتِيهُم عَذَابٌ أليمٌ ۞ قَالَ يا قَومِ إنِّي لَكُم نَذِيرٌ مُبينٌ ۞ أنِ اعبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُون** ﴾ [نُوح : ١ - ٣] .

وكَذلكَ قالَ إبراهيم عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ فيمَا أخبَرَ اللَّه عنهُ : ﴿ **وَإبرَاهيمُ إذ قَالَ لِقَومِهِ اعبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذلكِم خَيرٌ لَكُم إن كُنتُم تَعلَمُونَ ۞ إنَّمَا تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أوثَانَاً وَتَخلُقُونَ إفكَاً إنَّ الَّذينَ تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَملِكُونَ**

لَكُم رِزقَاً فَابتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزقَ وَاعبُدُوهُ وَاشكُرُوا لَهُ إلَيهِ تُرجَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٦ –١٧] .

وكذبكَ قالَ هودٌ عليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام فيما أخبَرَ اللَّه عنه : ﴿ وَإلى عادٍ أخاهُم هُوداً قالَ يا قَومِ اعبُدُوا اللَّه ﴾ [الأعراف : ٦٥ ، هود : ٥٠] .

وكَذلكَ قَالَ صَالِحٌ عليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ فيمَا أخبَرَ اللَّه عنهُ : ﴿ وَإلى ثَمُودَ أخَاهُم صَالِحَاً قَالَ يَا قَومِ اعبُدُوا اللَّه ﴾ [الأعراف : ٧٣ ، هود : ٦١] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَد أرسَلنا إلى ثَمُودَ أخَاهُم صَالِحَاً أنِ اعبُدُوا اللَّه ﴾ [النَّمل : ٤٥] .

وكَذلكَ قَالَ شُعَيبٌ عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام فيمَا أخبَرَ اللَّه عنهُ : ﴿ وَإلى مَديَنَ أخَاهُم شُعَيباً قَالَ يَا قَومِ اعبُدُوا اللَّه ﴾ [الأعراف : ٨٥ ، هود : ٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَإلى مَديَنَ أخَاهُم شُعَيباً فَقَالَ يَا قَومِ اعبُدُوا اللَّه ﴾ [العنكبوت : ٦٣] .

وكَذلكَ قَالَ المَسيحُ عيسى ابنُ مَريَمَ عليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ فيمَا أخبَرَ اللَّه عنه : ﴿ إنَّ اللَّه رَبِّي وَرَبُّكُم فَاعبُدُوهُ هذا صِرَاطٌ مُستَقيمٌ ﴾ [آل عمران : ٥١ ، مريم : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ لَقَد كَفَرَ الَّذينَ قَالوا إنَّ اللَّهَ هوَ المَسيحُ ابنُ مَريَمَ وَقَالَ المَسيحُ يا بَني إسرَائِيل اعبُدُوا اللَّه رَبِّي وَرَبَّكُم إنَّهُ مَن يَشرِك باللَّهِ فَقَد حَرَّمَ اللَّهُ عَليهِ الجَنَّةَ وَمَأوَاهُ النَّارُ وَمَا للظَّالمينَ مِن أنصَارٍ ﴾ [المَائدة : ٧٢] .

وقال تعالى : ﴿ مَا قلت لَهُم إلاَّ مَا أمَرتَني بِه أنِ اعبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُم وكُنتُ عَليهِم شَهِيداً مَا دُمتُ فيهِم فَلَمَّا تَوَفَّيتَني كُنتَ أنتَ الرَّقيبُ عَليهِم وَأنتَ عَلى كُلِّ شَيءٍ شَهِيد ﴾ [المَائدة : ١١٧] .

وقالَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ مُحمَّد ﷺ فيمَا أخبرَ اللَّه عنهُ : ﴿ ذلكُم اللَّهُ رَبُّكُم فَاعبُدُوهُ أفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يُونس : ٣].

وبالعُبُوديَّة أرسَلَ اللَّهُ جَميعَ الرُّسُلِ عَليهِم الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، كَمَا قَالَ تَعالى : ﴿ وَلَقَد بَعثنَا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أنِ اعبُدُوا اللَّهَ وَاجتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنهُم مَن هَدى اللَّهُ وَمِنهُم مَن حَقَّت عَلَيهِ الضَّلالَةُ ﴾ [النَّمل : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أرسَلنَا مِن قَبلِكَ مِن رَسُولٍ إلاَّ نُوحي إلَيهِ أنَّهُ لا إلهَ إلاَّ أنَا فَاعبُدُون ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وخَاطَبَ اللَّهُ المُرسَلينَ قَائلاً : ﴿ إنَّ هذهِ أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً وَأنَا رَبُّكُم فَاعبُدُون ﴾ [الأنبياء : ٩٢] .

كمَا قَالَ في الآيةِ الأخرى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعمَلوا صَالحَاً إنِّي بِمَا تَعمَلُونَ عَليمٌ * وإنَّ هذِهِ أمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِدَةً وَانَا رَبُّكُم فَاتَّقُون ﴾ [المؤمنون : ٥١ - ٥٢] .

العُبُوديَّةُ أسمى مقامات الدِّين وأرقى منازل اليقين

اعلَم أيُّها العَبدُ المُحِبُّ لا زِلتَ مَوصُولاً بِمَا يُحِبُّ : أنَّ العُبُوديَّة لِربِّ العَالمَينَ غَايَةَ كَمَالِ المُتَّقينَ، وَنِهَايَةَ شَرَفِ المُخلِصينَ، فَقَد جَعَلَ اللَّه سُبحَانَهُ وَتَعالى العُبُودِيَّة وَصفَ أكمَلِ خَلقِهِ، وَأقرَبِهم إلَيهِ، فقال تعالى عَن المَسيحِ عيسى ابن مَريم عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ الَّذي ادُّعت فيهِ الألُوهيَّةُ وَالنُّبُوَّةُ :

﴿ يَا أهلَ الكِتَابِ لا تَغلُو في دِينِكُم وَلا تَقُولوا عَلى اللَّهِ إلَّا الحَقَّ إنَّمَا المَسيحُ عيسى ابنُ مَريَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ألقَاها إلى مَريَمَ وَرُوحٌ مِنهُ فَآمِنُوا باللَّهِ وَرُسُلِه وَلا تَقُولوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيرٌ لَكُم إنَّمَا اللَّهُ إلَهٌ وَاحِدٌ سُبحَانَهُ أن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا في السَّمَاوَاتِ وَمَا في الأرضِ وَكَفَى باللَّهِ وَكِيلاً * لَن يَستَنكِفَ المَسيحُ أنْ يَكُونَ عَبداً للَّهِ وَلا المَلائِكَةُ

المُقَرَّبُونَ وَمَن يَستَنكِف عَن عِبَادَتِهِ وَيَستَكبِر فَسَيَحشُرُهُم إلَيهِ جَميعاً ﴾ [النِّساء : ١٧١ - ١٧٢] .

وقالَ تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابنُ مَريَمَ مَثَلاً إذا قَومُكَ مِنهُ يَصِدُّونَ * وَقَالوا ءَأَلِهَتُنَا خَيرٌ أم هوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إلاَّ جَدَلاً بَل هُم قَومٌ خَصِمُونَ * إن هوَ إلاَّ عَبدٌ أنعَمنَا عَلَيهِ وَجَعَلنَاهُ مَثَلاً لِبَني إسرَائِيلَ ﴾ [الزُّخرف : ٥٧ - ٥٩] .

وبِها افتَتَحَ المَسيحُ عَلَيهِ الصلاةُ وَالسَّلامُ كَلامَه وَهوَ في المَهدِ، فقال تعالى : ﴿ قَالَ إنِّي عَبدُ اللَّهَ آتَاني الكِتَابَ وَجَعَلَني نَبِيّاً ﴾ [مَريم : ٣٠] .

فَانظُر رَحِمَكَ اللَّه كَيفَ جَعَلَ غَايَتَهُ العُبُوديَّة لا الإلَهِيَّة، كَمَا يَقُولُ أعدَاءُ اللَّهِ النَّصَارى .

وَوَصَفَ اللَّهُ أكرَمَ خَلقِهِ عَلَيهِ، وَأعلاهُم مَنزِلَةً لَدَيهِ، وَأقرَبَهُم نُزُلاً إلَيهِ مُحَمَّداً ﷺ بِوَصفِ العُبُوديَّةِ في أشرَفِ مَقَامَاتِهِ، وَأكمَلِ حَالاتِه .

فقالَ في حَالِ الإسرَاء : ﴿ سُبحَانَ الَّذي أسرى بِعَبدِهِ لَيلاً مِنَ المَسجِدِ الحَرَامِ إلى المَسجِدِ الأقصى الَّذي بَارَكنَا حَولَهُ لِنُرِيَهُ من آيَاتِنا إنَّهُ هوَ السَّميعُ البَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١] .

وقالَ في حَالَةِ النَّصرِ : ﴿ وَاعلَمُوا أنَّمَا غَنِمتُم مِن شَيءٍ فأنَّ للَّهِ خُمسَهُ وَللرَّسولِ وَلذي القُربى وَاليَتَامى وَالمَسَاكينِ وَابنِ السَّبيلِ إن كُنتُم آمَنتُم باللَّهِ وَمَا أَنزَلنا عَلى عَبدِنا يَومَ الفُرقَانِ يَومَ التَقَى الجَمعَانِ وَاللَّهُ على كُلِّ شَيءٍ قَدير ﴾ [الأنفال : ٤١] .

وقالَ في حَالِ العِصمَةِ وَالكِفَايَةِ وَالرِّعَايَةِ : ﴿ أَلَيسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] .

وقالَ في حَالِ الصَّلاةِ وَالسُّجُودِ وَالقُربِ إلى اللَّه : ﴿ أرَأَيتَ الَّذي يَنهى * عَبداً إذا صَلَّى ﴾ إلى قَولهِ : ﴿ كَلَّا لا تُطِعهُ وَاسجُد وَاقتَرِب ﴾ [العَلَق : ٩ - ١٩] .

وقَالَ في مَقَامِ الإيحاء : ﴿ فَأوحى إلى عَبدِهِ ما أوحَى ﴾ [النَّجم : ١٠] .

وقالَ في مَقَامِ إنزَالِ الكِتَابِ عَلَيهِ : ﴿ الحَمدُ للَّهِ الَّذي أنزَلَ على عَبدِهِ الكِتَابَ وَلَم يَجعَل لَهُ عِوَجاً ﴾ [الكهف : ١] .

وقالَ أيضاً : ﴿ تَبَارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلى عَبدِهِ لِيَكُونَ للعَالَمينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : ١] .

وقالَ أيضاً : ﴿ هوَ الَّذي يُنَزِّلُ عَلى عَبدِهِ آيَاتٍ

بَيِّنَاتٍ لِيُخرِجَكُم منَ الظُّلمَاتِ إلى النُّورِ وَإنَّ اللَّهَ بِكُم رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٩] .

وقَالَ في مَقَامِ الدَّعوَةِ : ﴿ وَأنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبدُ اللَّهِ يَدعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] .

وقَالَ في مَقَامِ التَّحَدِّي : ﴿ وَإن كُنتُم في رَيبٍ مِمَّا نَزَّلنَا عَلَى عَبدِنَا فَأتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثلِه ﴾ [البقرة : ٢٣] .

وَبالعُبُوديَّة وَصَفَ الرَّسُول ﷺ نَفسَهُ في جَميعِ أحوَالِهِ وَأفعَالِهِ :

فقالَ ﷺ :

« آكُلُ كَمَا يَأكُلُ العَبدُ، وَأجلِسُ كَمَا يَجلِسُ العَبدُ، فإنَّمَا أنَا عَبدٌ »[1] .

عَن عائشة رضي اللَّه عنها :

« أنَّ نَبِيَّ اللَّه ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ[2] قَدَمَاهُ » .

فقالت عائشة : لِمَ تَصنَعُ ذلكَ يا رسول اللَّه وَقَد غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟

---

(١) صَحيح كَمَا بيَّنَهُ شَيخنا حَفِظَهُ اللّٰه في « الصَّحيحة » (٥٤٤) .

(٢) أي : تَتَشَقَّق .

قال : « أفَلا أُحِبُّ أن أكُونَ عَبداً شَكوراً » .

فَلَمَّا كَثُرَ لَحمه صَلَّى جَالِساً، فإذا أرَادَ أن يَركَعَ قَامَ فَقَرأَ ثُمَّ رَكَعَ .[1]

وَأَمَرَنا رسول اللَّه أن نَصِفَهُ بالعُبُوديَّةِ، وَلا نَتَجاوَز هذا المقَامِ لِئَلَّا تَزِلَّ أقدَام، وَتَضِلَّ أفهَام .

عَن ابن عبَّاس سَمِعَ عُمَر رضي اللَّه عنه يَقول على المِنبَرِ : سَمعتُ النَّبيَّ ﷺ يَقول :

« لا تُطرُوني كَمَا أطرَت النَّصَارى ابنَ مَريَمَ فإنَّمَا أنَا عَبدٌ فَقُولوا : عَبداللَّه وَرَسُوله »[2].

وَفي هذا المَقَامِ حَلَّت رِحَالُ النَّبيِّينَ، وَأَنَاخَت رَكَائِبُ المُرسَلينَ مِن أوَّلهم إلى خَاتمهم .

قالَ تعالى عَن نُوحٍ عليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ : ﴿ **ذُرِّيَّةَ مَن حَمَلنا مَعَ نُوحٍ إنَّهُ كَانَ عَبداً شَكُوراً** ﴾ [**الإسراء : ٣**] .

وقالَ تعالى : ﴿ **وَاذكُر عَبدنا أيُّوبَ** ﴾ [**ص : ٤١**] .

وقال : ﴿ **وَاذكُر عَبادنا إبرَاهيم وَإسحَاقَ وَيَعقُوبَ أُولي**

---

(١) أخرَجَهُ البخاري (٨ / ٥٨٤ - فتح)، وَمسلم (٢٨٢٠)، وَفي البَابِ عَن المُغِيرَة بن شعبَة رضي اللَّه عنه عندَ البخاري (٣ / ١٤ ، ١١ / ٣٠٣ - فتح) ، وَمسلم (٢٨١٩) .

(٢) أخرَجَهُ البخاري (٦ / ٤٧٨ - فتح) ، وَغيره .

الأيدي وَالأبصَار ﴾ [ص : ٤٥] .

وبِها أيضاً وَصَفَ اللَّه دَاودَ وَسُلَيمانَ وَيُوسفَ وَهَارُونَ وإسماعيلَ وإليَاسَ وَكُلَّ المُرسَلينَ : ﴿ وَلَقَد سَبَقَت كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنا المُرسَلينَ ﴾ [الصَّافَّات : ١٧١] .

وبذلكَ وَصَفَ مَلائِكَتَهُ فقالَ سُبحَانَهُ : ﴿ وَلَـهُ مَن في السَّمَـاوَاتِ وَالأرضِ[1] وَمَن عِنـدَهُ لا يَستَكبِرونَ عَن عِبَادَتِهِ وَلا يَستَحسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ لا يَفتَرُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٩ - ٢٠] .

وقَالَ تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ لا يَستَكبِرونَ عَن عِبَادَتِه

---

(١) قال ابن قيم الجوزية في « مَدَارج السَّالكين » (١ / ١٠٢) :

وَهذا يُبَيِّن أنَّ الوَقفَ التَّامَّ في سُورة الأنبياء ﴿ وَلَهُ مَن في السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ ﴾ هَهُنَا، ثُمَّ يَبتَدِىءُ ﴿ وَمَن عندَهُ لا يَستَكبِرونَ عَن عِبَادَتِهِ وَلا يَستَحسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ لا يَفتَرُونَ ﴾ فَهُمَا جُملَتَانِ مُستَقِلَّتَانِ أي : أنَّ لَهُ مَن في السَّمَاوَاتِ وَمَن في وَالأرضِ عَبيداً أو مَلَكاً، ثُمَّ استَأنَفَ جُملَةً أخرى فقال : ﴿ وَمن عِندَهُ لا يَستَكبِرُونَ عَن عِبَادَتِه ﴾ يَعني المَلائِكة الَّذينَ عندَهُ لا يَستَكبِرُونَ عَن عبادتِه يَعني لا يَأنَفُونَ عَنها، وَلا يَتَعَاظَمُونَ، وَلا يَستَحسِرُونَ، فيَعيونَ وَيَنقَطِعُونَ، - يُقال : حَسَرَ وَاستَحسَرَ، إذا تَعِبَ وَأعيا - بَل عِبَادتهم وَتَسبيحهم كَالنَّفسِ لبَني آدَم .

فَالأوَّل : وَصفٌ لعبيدِ رُبُوبيَّتِه .

وَالثَّاني : وَصفٌ لعَبيدِ إلَهِيَّتِهِ .

وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسجُدُونَ ﴾ [**الأعراف : ٢٠٦**] .

ونَعَتَ صَفوَةَ خَلقِهِ بالعُبُودِيَّةِ لَهُ، فقالَ تعالى : ﴿ **وَعِبَادَ الرَّحمَنِ الَّذينَ يَمشُونَ عَلى الأرضِ هَوناً وَإذا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالوا سَلاماً** ﴾ الآيات [**الفرقان : ٦٣ - ٧٧**] .

وقَالَ أيضاً : ﴿ **عَيناً يَشرَبُ بِها عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفجِيراً** ﴾ [**الانسان : ٦**] .

وَحَسبُكَ أنَّ الرَّسُول ﷺ جَعَلَ إحسَانَ العُبُودِيَّة أعلى مَرَاتِب الدِّين، فقال في حديث جبريل الطَّويل - وَقَد سَأَلَهُ عَن الإحسَانِ :

« أن تَعبُدَ اللَّه كَأَنَّكَ تَرَاهُ فإن لَم تَكُن تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ »[1] .

---

(١) اخرجهُ مسلم (٨) مِن حديثِ عُمَر بن الخَطَّابِ رضي الله عنه .

آثار العبوديّة في النّفس البشريّة

١ - العُبُوديَّة للَّه وَاحَةُ أمنٍ وَاستِقرَار .

إنَّ العَبدَ المُوَحِّدَ الَّذي يَخضَعُ لِرَبٍّ وَاحِدٍ، وَهوَ يَعلَمُ مَا يَطلُبُهُ مِنهُ، وَيُكَلِّفُهُ بِهِ مُستَرِيحٌ مُستَقِرٌ يَنعم بِرَاحَة الاستِقَامَة وَالأمَن وَاليقين، وَتجمُّع الطَّاقَة وَوَحدَة التَّوجُّه، وَوُضُوحِ الطَّرِيقِ؛ لأنَّهُ على مَنهَج وَاضِح صَرِيح .

وَالقَلبُ المُعَبَّدُ للإلَهِ الحَقِّ يَقطَعُ الرِّحلَةَ إلى غَايَتِهِ على هُدىً لأنَّهُ يَعرِفُ مَصدَراً وَاحِدَاً للخَلقِ وَالرِزقِ، وَمَصدَراً وَاحِدَاً للنَّفعِ وَالضُّرِ، وَمَصدَراً وَاحِداً للمَنحِ وَالمَنعِ، فيَستَمِدُّ مِنهُ وَحدَهُ، وَيَعتَصِم بِحَبلٍ وَاحِدٍ يَشُدُّ عروتَه ... فيَخدم سَيِّداً وَاحِداً يَعرِفُ مَاذا يُرضِيهِ؛ فيَفعَله، وَمَاذا يُغضِبهُ؛ فيَتَّقِيهِ .

أمَّا العَبدُ المُشرِك فَهوَ مُعَذَّبٌ مُقَلقَلٌ مُضطرب لا يَستَقِرُّ على حَالٍ، وَلا يَهنأُ لهُ بَال، وَلا يُعرَفُ لهُ مآل؛ لأنَّهُ يَخضَع

لسَادَة مُتَشَاكِسِينَ يُخَاصِمُ بَعضُهُم بَعضاً، وهوَ بيَنهم مُوَزَّعٌ، لكلٍّ منهم فيهِ تَوجيهٌ، وَلكلٍّ مِنهم عَلَيهِ تَكليفٌ، وَهوَ بيَنهم حَيرَان؛ لأنَّهُ لا يَملك أن يُرضيَ أهوَاءَهمُ المُتَنَازِعَة المُتَعارِضَةَ المُتَشَاكِسَةَ، الَّتي تُمَزِّقُهُ وَتُفَرِّقُهُ.

إنَّ مَن يَتَّخِذ مِن دُونِ اللَّه أندَاداً يُحِبُّهُم كَحُبِّ اللَّه يَعبُد آلِهَةً مُتَعارِضَةً مُتَشَاكِسَةً فَمنهُم مَن يَعبُد الهَوى فَكُلَّمَا هَوى شَيئاً رَكِبَهُ، وَكُلَّمَا هَوى شَيئاً أتَاهُ، لا يَحجزهُ عَن ذلكَ وَرَعٌ وَلا تَقوى، وَلذلك وَرَد إطلاقُ الإلَه على الهَوى المُتَّبَع، كَمَا قالَ تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيتَ مَن اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ على علمٍ وَخَتَمَ على سَمعِهِ وَقَلبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غشاوَة فَمَن يَهديه مِن بَعدِ اللَّهِ أفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [**الجاثية : ٢٣**].

وقالَ تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيتَ مَن اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُون عَليهِ وَكِيلاً * أم تَحسَبُ أنَّ أكثَرَهُمُ يَسمَعُونَ أو يَعقِلونَ إن هُم إلاَّ كَالأنعَامِ بَل هُم أضَلُّ سَبيلاً** ﴾ [**الفرقان : ٤٣ – ٤٤**].

ومنهُم مَن يَعبُد الشَّيطَانَ، كَمَا قالَ تعالى: ﴿ **ألَم أعهَد إلَيكُم يا بَني آدَمَ أن لا تَعبُدُوا الشَّيطَانَ إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبينٌ * وَأن اعبُدُوني هذا صِراطٌ مُستقيم * وَلَقَد أضَلَّ مِنكُم**

جِبِلاًّ كَثيراً أفَلَم تَكُونوا تَعقِلونَ ﴾ [يس : ٦٠ - ٦٢] .

وقَال اللَّه تعالى حَاكِياً عَن خليلهِ إبراهيم عليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ لأبيهِ : ﴿ يا أَبَتِ لا تَعبُد الشَّيطَانَ إنَّ الشَّيطَانَ كَانَ للرَّحمنِ عَصِيًّا ﴾ [مريم : ٤٤] .

وَالمَعبُودَات البَاطِلَة كَثيرة، كَمَا قالَ رَسول اللَّه ﷺ :

« تَعِسَ[١] عَبدُ الدِّينَار وَالدِّرهم وَالقَطيفَة[٢] وَالخَميصَة[٣] إن أُعطِيَ رَضي وَإن لَم يُعطَ لَم يَرضَ »[٤].

وَفي رواية :

« تَعِسَ وَانتَكَسَ وَإذا شِيكَ فَلا انتَقَشَ »[٥] .

وَفي رواية :

« إن أُعطِيَ رَضيَ وَإن لَم يُعطَ لَم يَفِ »[٦].

---

(١) هَلَكَ وَبَعُدَ .

(٢) كِسَاء لَهُ خُملٌ .

(٣) ثَوبُ خَزٍّ أو صُوفٍ مُعْلَّمٍ، وَلا تُسَمَّى خَميصَةً إلاَّ أن تَكُونَ سَودَاءُ مُعَلَّمَةٌ .

(٤) أخرجهُ البخاري (٦ / ٨١ و ١١ / ٢٥٣ - فتح) مِن حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه .

(٥) عندَ البخاري (٦ / ٨١ - فتح)، وابن مَاجَه (٤١٣٦) .

(٦) عندَ ابن مَاجَه (٤١٣٥) .

قالَ شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رحمهُ اللَّه :

« فسمَّاهُ النَّبيُّ ﷺ : عَبدَ الدِّرهَم، وَعَبدَ الدِّينَار، وَعبدَ القَطيفَةِ، وَعبدَ الخَميصَةِ، وذَكَرَ ما فيه؛ دُعاءً وَخبَراً وَهوَ قوله : « تَعِسَ وَانتَكَسَ وَإذا شيكَ فَلا انتَقَشَ » .

وَالنَقشُ : إخراجُ الشَّوكَةِ منَ الرِّجل، وَالمِنقَاشُ : ما يُخرج بِهِ الشَّوكَةَ .

وَهذهِ حَالُ مَن إذا أصَابَهُ شَرٌّ لَم يَخرُج مِنهُ، وَلَم يُفلح لِكَونِهِ تَعِسَ وَانتَكَسَ، فَلا نَالَ المَطلُوب، وَلا خَلَصَ منَ المَكرُوهِ وَهذهِ حَالُ مَن عَبَدَ المَال .

وقَد وُصِفَ ذلكَ بأنَّهُ إذا أُعطيَ رَضي وَإذا مُنِعَ سَخِطَ، كَمَا قالَ تعالى : ﴿ **وَمِنهُم مَن يَلمِزُ في الصَّدَقَاتِ فإن أُعطُوا مِنها رَضُوا وَإن لَم يُعطَو مِنها إذا هُم يَسخَطُون** ﴾ [**التوبة : ٥٩**]، فرِضَاهُم لغَيرِ اللَّه، وَسَخَطُهُم لغَيرِ اللَّه .

وَهكَذا حَالُ مَن كَانَ مُتَعَلِّقَاً بِرئاسَةٍ أو بِصُورَةٍ، وَنَحوِ ذلكَ مِن أهوَاءِ نَفسِهِ، وَإن حَصَلَ لَهُ رَضي، وَإن لَم يَحصُل لَهُ سَخِطَ، فَهذا عَبْدُ مَا يهوَاهُ مِن ذلكَ، وَهوَ رَقيقٌ لَهُ، إذ الرِّقُّ وَالعُبُوديَّة في الحَقيقة، هوَ رِقُّ القَلبِ وَعُبُوديَّته، فَمَا استَرَقَّ القَلبَ وَاستَعبَدَهُ، فَالقَلبُ عَبدُهُ .

وَلهذا يُقال :

وَلهذا يُقال :

العَبدُ حُرٌّ مَا قَنِع وَالحُرُّ عَبدٌ مَا طَمِعَ

وَقالَ القَائل :

أَطَعتُ مَطَامِعِي فَاستَعبَدَتني
وَلَو أَنِّي قَنَعتُ لَكُنتُ حُرّاً

وَيُقال : الطَّمَعُ غُلٌّ في العُنقِ، وَقيدٌ في الرِّجلِ، فإذا زَالَ الغُلُّ منَ العُنُقِ زَالَ القيدُ منَ الرِّجل .

وَيُروى عَن عُمَر بن الخَطَّاب رضي اللَّه عنه قال : « الطَّمَعُ فَقرٌ، وَاليَأسُ غِنىً، وإنَّ أحدَكُم إذا يَئِسَ من شَيءٍ استَغنى عنهُ » .

وَهذا أمرٌ يَجِدُهُ الإنسَانُ في نَفسِهِ، فإنَّ الأمرَ الَّذي يَيأَسُ مِنهُ لا يَطلُبهُ، وَلا يَطمَعُ فيهِ، وَلا يَبقى قَلبُهُ فَقيِراً إليهِ، وَلا إلى منَ يَفعَلُهُ .

وَإمَّا إذا طَمِعَ في أمرٍ منَ الأمُورِ وَرَجَاهُ، فإنَّ قَلبَهُ يَتَعَلَّقُ بِهِ، فيَصِيرُ فَقيَراً إلى حُصُولِهِ، وَإلى مَن يَظُنُّ أنَّهُ سَبَبٌ في حُصُولِهِ، وَهذا في المَالِ وَالجَاهِ وَالصُّوَرِ وَغَير ذلكَ »[1] .

وَلَقَد ضَرَبَ اللَّه مَثَلاً للعَبد المُوَحِّد وَالعَبد المُشرِك ما

---

(١) « العُبُوديَّة » (ص ٨٥ – ٨٨) .

قَدَّمنا مَعناهُ فقالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَل يَستَوِيَانِ مَثَلاً الحَمدُ للَّهِ بَل أكثَرُهُم لا يَعلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩] .

هَل يَستَوِيَانِ مَثَلاً ؟

إنَّهُمَا لا يَستَوِيَانِ؛ فَالعَبدُ المُوَحِّدُ في رَاحَةٍ وأمَانٍ وَالعَبدُ المُشرِكُ في قَلَقٍ حَيرَان .

العَبْدُ المُؤمِن في استِقرارٍ وَالعَبدُ المُشرِكُ نَهْبٌ للأفكَار، وَصيدٌ للأشرار .

العَبدُ المُوَحِّدُ في استِقَامَة وَالعَبدُ المُشرك في نَدَامَة .

إذن :

﴿ أأربَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيرٌ أمِ اللَّه الوَاحِد القَهَّار ﴾ [يُوسف : ٣٩] .

اللَّه الوَاحِدُ القَهَّارُ خَيرٌ من الأربَابِ الباطِلَة المُتَفَرِّقَة، وَالأهوَاءِ المُتَعارِضَةِ، وَالآلِهَةِ الزَّائِفَة القَاصِرَة، وَالمَنَاهِج الأرضِيَّةِ العَرجَاء .

اللَّه الوَاحِدُ القَهَّارُ خَيرٌ مِمَّن لا يَملِكُ نَفعَاً وَلا ضُرَّاً بَل ضُرُّه أقرَبُ مِن نَفعِهِ .

اللَّه الوَاحِدُ القَهَّار خَيرٌ مِمَّن يُريدُ استِعبَادَ الخَلقِ لِمَصلَحَتِهِ وَهَوَاهُ .

اللَّه الوَاحِدُ القَّهار خَيرٌ منَ الأَربَابِ الأَرضِيَّةِ الَّتي تَغتَصِبُ سُلطَانَ اللَّه تَحتَ تَأثيرِ الوَهمِ وَالخُرَافَةِ وَالأُسطُورَة أو تَحتَ تَأثيرِ القَهرِ وَالخِدَاع وَالدِّعَايَة .

ويَضرِبُ اللَّه مَثَلاً لهذِهِ الأربَاب المُتَفرِّقَة لتَقريبِ الحَقيقة الكُبرى الَّتي غَفلوا عَنها : ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ عَبداً مَملوكاً لا يَقدِرُ على شَيءٍ وَمَن رَزَقنَاهُ رِزقاً حَسَناً فَهوَ يُنفِقُ مِنهُ سِرَّاً وَجَهراً هَل يَستَوونَ الحَمدُ للَّه بَل أكثَرُهُم لا يَعلَمُونَ** ﴾ [**النحل** : ٧٥] .

إنَّهُم لا يُسَوُّونَ بيَنَ المَملوكِ العَاجِز وَالسَّيِّد المَالِكُ المُتَصرِّف ، فَكَيفَ يُسَوُّونَ بينَ رَبِّ العِبَادِ وَبيَنَ شَيءٍ مِمَّن خَلَقَ ... أفَلا يَعقِلونَ ؟!

﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَينِ أحَدُهُما أبكَمُ لا يَقدِرُ على شَيءٍ وَهوَ كَلٌّ على مَولاهُ أينَمَا يُوَجِّهُهُ لا يَاتِ بِخَيرٍ هَل يَستَوي هوَ وَمَن يأمُرُ بالعَدلِ وَهوَ على صِرَاطِ مُستَقيمٍ** ﴾ [**النحل** : ٧٦] .

رَجُلٌ ضَعيفٌ بَليدٌ أبكَمٌ لا يَدري شَيئاً وَلا يَاتِ بِخَيرٍ بَل هوَ عَالَةٌ عَلى سَيِّدِهِ في كُلِّ حَرَكَاتِهِ وَتَوجِيهَاتِه ... وَرَجُلٌ قَوِيٌّ مُتَكَلِّمٌ بالعَدلِ آمِر بالخَير عَامِلٌ مُستَقيمٌ

على صِرَاطٍ مُستَقيم ... هَل يُسَوِّي عَاقِلٌ؟ بيَنَ الأوَّل وَالثَّاني ؟! فَكَيفَ يُمكِن التَّسوِيَة بيَنَ حجَرٍ أو صَنَم أو وَثَنٍ أو مَخلوقٍ وَبيَنَ اللَّه سُبحانَهُ العَليم الحَليم الهَادي إلى صِرَاطٍ مُستَقيم .

وَأيْم اللَّه مَا شَقَت البَشَرِيَّة قَطُّ شَقَاءَها بِتَعَدُّدِ الأربَابِ وَتَفرُّقِهم، وَاختِلاف المَنَاهِج وَتَلَوُّنها، وَتَوَزُّعِ العِبَادِ بيَنَ أهوَاءِ الأربَابِ البَاطِلَة وَأوهَامِ المَنَاهِج الزَائِلَة .

وهنا يَهجُمُ سُؤَالٌ على الفِطرَة في أعماقِها فيَهُزُّها وَيَشُدُّها، وَيُوقِظُها، وَيَحلُّ وثَاقها، وَهوَ قَولُ اللَّه تعالى حَاكِياً عن إبرَاهيم عليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ لقَومِهِ بَعدَ أن أقَامَ حُجَّةَ اللَّه عَلَيهِم : ﴿ وكَيفَ أخَافُ مَا أشرَكتُم وَلا تَخافُونَ أنَّكم أشرَكتُم باللَّهِ مَا لَم يُنزِّل بِهِ عَلَيكُم سُلطَاناً فأَيُّ الفَريقَينِ أحَقُّ بالأمنِ إن كُنتُم تعلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٨١] .

فيأتي الجوَاب : ﴿ الَّذينَ آمَنُوا وَلَم يَلْبِسوا إيمانهم بظلمٍ أُولئكَ لَهُم الأمنُ وَهُم مُهتَدونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢] .

٢ – العُبُوديَّة للَّه وَسيلَةٌ لانتِفَاع العَبد بِنِعَمِ اللَّه عليهِ، وَاعتبارِهِ بآياتِ اللَّه في الكَونِ وَنَفسِهِ .

لا مَنَاصَ للعَبدِ حينَ يَبغي سَعَادَتَهُ وَرَاحَتَهُ وَطُمَأنينَةُ

بالِهِ وَصلاحَ حَالهِ منَ الرُّجُوع إلى مَنهَج اللَّه في ذَاتِ نَفسِهِ، وَفي نِظَام حَيَاتِهِ، وَفي مَنهَجِ مُجتَمَعِهِ؛ ليتناسق مَع النِّظَام الكَوني كُلِّه الَّذي هوَ خَاضِعٌ للَّه عُبُوديَّةَ اضطرَار، ﴿ إن كُلُّ مَن في السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ إلا آتِ الرَّحمنِ عَبداً ﴾ [مريم : ٩٣] .

فإذا انفَرَدَ العَبدُ بِمَنهَجٍ مِن تِلقَاءِ نَفسِهِ، وَصُنعِ يَدِيهِ، وَنَسجِ خَيَالِهِ، فإنَّهُ لا يَتَنَاسَق مَع النِّظَام الكَوني الَّذي صَنَعَهُ اللَّه، فَأحسَنَ .

وَالعَبدُ مُضطرٌّ أن يَعيشَ في نِظَام هذا الكَونِ، وَأن يَتَعامَل مَع سُنَن اللَّه في الكَونِ، وَالتَّنَاسُق بينَهُ وَبيَنَ هذا النِّظَام الطَّائع للَّه رَبِّ العالَمينَ، هوَ وَحدَهُ الَّذي يَكفَلُ لَهُ التَّعاوُنَ مَعَ الكَونِ، وَالانتِفَاعَ بِسُنَنِ اللَّه فيهِ بَدَل التَّصادُم مَعَهُ ... وَالعَبدُ حينَمَا يَصطَدِمُ بِها يَتَمَزَّق، وَلا يُؤَدِّي الأمَانَةَ الَّتي حَمَلَها اختِيَاراً ... إنَّهُ كانَ ظَلوماً جَهُولاً، وَلكِنَّهُ حينَ يَتَنَاسَق مَع الكَون يَملكُ مَعرِفَةَ أسرَارِهِ، وَتسخِيرَهُ بإذنِ اللَّه، وَالانتِفَاعَ بِه على الوَجه الَّذي يُحقِّق لَهُ السَّعَادَة، وَالرَّاحَة وَالطُّمَأنينَة .

وَالفِطرَةُ الإنسانيَّةُ في أصلها مُتَنَاسِقَةٌ مَع سُنَن اللَّه في الكَونِ، مُسلِمَةٌ لرَبِّها إسلامَ كُلِّ شَيءٍ وَكُلِّ حَيٍّ ... فَمِنَ

الجَهلِ أن يَختَارَ العَبدُ غَيرَها، أو أن يَحتَارَ في اتِّبَاعِها، وَمِنَ الظُّلم أن يَضَعَها في غَيرِ مَوضِعِها ، قالَ تعالى : ﴿ **أفَغيرَ دِينِ اللَّهِ يَبغُونَ وَلَهُ أسلمَ مَن في السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ طوعَاً وَكَرهَاً وَإلَيهِ يُرجَعُونَ** ﴾ [**آل عمران : ٨٣**] .

قالَ شَيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمهُ اللَّه :

« فَذَكَرَ إسلام الكَائِنَاتِ طَوعَاً وَكَرهَاً؛ لأنَّ المَخلُوقَات جَميعها مُتَعَبِّدَةٌ لَهُ التَّعَبُّدَ التَّامَّ، سَوَاء أقَرَّ المُقِرُّ بذلكَ أو أنكَرَهُ، وَهُم مَدينُونَ لَهُ، مُدَبَّرُونَ، فَهُم مُسلِمُونَ لَهُ طَوعَاً وَكَرهَاً، لَيسَ لأحَدٍ منَ المَخلُوقَاتِ خُرُوجٌ عَمَّا شَاءَهُ وَقَدَّرَهُ وَقَضَاهُ، وَلا حَولَ وَلا قُوَّةَ إلَّا بِه، وَهوَ رَبُّ العَالِمينَ وَمَليكُهُم، يَصرِفُهُم كَيفَ شَاءَ، وَهوَ خَالِقُهُم، وَبَارِئُهُم، وَمُصَوِّرُهُم .

وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَهوَ مَربُوبٌ مَصنُوعٌ مَفطُورٌ، فَقير مُحتَاج مُعَبَّدٌ مَقهُورٌ، وَهوَ سُبحَانَهُ الوَاحِدُ القَهَار، الخَالق البَارِىءُ المُصَوِّر .

وَهوَ وَإن كَانَ قَد خَلَقَ مَا خَلَقَهُ بأسبَابٍ فَهوَ خَالِقُ السَبَبِ وَالمُقَدَّرُ لَهُ، وَهوَ مُفتَقَرٌ إلَيهِ كَافتِقَارِ هذا، وَلَيسَ في المُخلُوقَات سَبَبٌ مُستَقِلٌّ بِفِعلِ خَيرٍ وَلا دَفعِ ضُرٍّ، بَل كُلُّ مَا هوَ سَبَبٌ مُحتَاجٌ إلى سَبَبٍ آخَر يُعَاوِنهُ، وَإلى مَا يَدفَع عَنهُ

الضِدَّ الَّذي يُعَارِضُهُ وَيُمَانِعُهُ .

وَهوَ سُبحانَهُ وَحدَهُ الغَنيُّ عن كُلِّ ما سِوَاهُ، لَيسَ لَهُ شَرِيكٌ يُعَاوِنه، وَلا ضِدٌّ يُنَاوِئُه وَيُعَارِضُه .

قالَ تعالى : ﴿ **قُل أرَأَيتُم مَا تَدعُونَ مِن دُونِ اللَّه إن أرَادَنِي بِضُرٍّ هَل هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أو أرَادَنِي بِرَحمَةٍ هَل هُنَّ مُمسِكَاتُ رَحمَتِهِ قُل حَسبِيَ اللَّه عَلَيهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِّلونَ** ﴾ [الزمر : ٣٨] .

وقال : ﴿ **وَإن يَمسَسكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إلَّا هو وَإن يَمسَسكَ بِخَيرٍ فَهوَ على كُلِّ شَيءٍ قَدير** ﴾ [الأنعام : ١٧] » أ . هـ[١] .

فَمَتى كَانَ العَبدُ عَبداً للَّهِ انتَفَعَ بِمَا عندَ اللَّه وَبآياتِ اللَّه إكرَاماً منَ اللَّه وَلَيسَ إلزَاماً للَّه، فإذا دَعَا اللَّه استَجَابَ لَهُ، وَإذا سَأَلَهُ أعطَاهُ، وَإذا استَعَاذَ بِه أعَاذَهُ، وَإذا لَجَأَ إلَيهِ حَمَاهُ .

وَتَدَبَّر رَحِمَكَ اللَّه هذا الحَديث الَّذي يُخبِرُ فيهِ الرَّسول ﷺ عَن مَوقِف حَدَثَ بينَ نَبِيٍّ من أنبِيَاءِ اللَّه وَهوَ يُوشَعُ بن نُون عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ وَبَينَ مُخلوق مِن مَخلوقَاتِ اللَّه

---

(١) « العُبُوديَّة » (ص ١٢٢ - ١٢٣) .

وَهوَ الشَّمسُ .

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنهُ قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ :

« إنَ الشَّمسَ لَم تُحبَس لِبَشَرٍ إلاَّ ليُوشَع ليالي سَارَ إلى بيَتِ المَقدِس . (في رواية) غزَا نَبِيٌّ مِن الأنبِياء، فقال لقَومِه : لا يَتبَعني رَجُلٌ مَلَكَ بُضعَ امرأة، وَهوَ يُريدُ أن يَبنيَ بِها، وَلَما يَبنِ [بِها]، وَلا آخر قَد بَنى بُنيَاناً، وَلَما يَرفَع سُقُفُها، وَلا آخر قَد اشتَرى غَنَماً أو خَلِفَاتٍ، وَهوَ مُنتَظِرُ ولادَها .

قال : فَغزَا، فَأدنى للقَريَةِ حينَ صَلاةِ العَصرِ أو قَريباً مِن ذلكَ، (وَفي رواية : فَلَقِيَ العَدُوَّ عندَ غيبُوبَةِ الشَّمسِ) فقالَ للشَّمس : أنتِ مَأمُورَة، وَأنَا مَأمُور، اللَّهمَّ احبِسها عَلَيَّ شَيئاً، فَحُبِسَت عَلَيهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّه عليه ... » الحديث[1] .

---

(١) حديثٌ صحيحٌ كَمَا بيَّنهُ شيخنا حَفظَهُ اللَّه في « الصَّحيحة » (٢٠٤) جَامِعَا طُرُق رِوَايَاتِه وَزِيَادَاتِه، وَقالَ عَنهُ : هذا حديثٌ صحيحٌ جليلٌ، مِمَّا حَفِظَهُ أبو هريرة رضي اللَّه عنه، وَلَهُ عنهُ أربَعُ طُرُق ... » .

قلت : وَانظُر شيئاً مِن فَوَائدِهِ وَفِقهِهِ في كِتَابي « الثَّبات على الإسلامِ » (ص ١١٩ - ١٢٦) نَشر دار المَنَار - الرِّيَاض .

وتَأمَّل رَحِمَكَ اللّه قَول ذلكَ النَّبيّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ للشَّمسِ : أنتِ مَأمُورَةٌ، وَأنَا مَأمُورٌ، تُدْرِكُ عُمق المَسألَة، وَلكنَّها يَسيرَةٌ على مَن آتاهُ اللّه فَهماً، وَأورَثَهُ علماً .

وَلَقَد وَقَعَ للصَّحَابَةِ رَضي اللّه عنهم من ذلك أُمُوراً كَقَولِ عُمَر رضي اللّه عنه وَهوَ يَخْطُبُ على المِنبَر :

« يَا سَارِيَةَ الجَبَل يا سَارِيَةَ الجَبَل »[1] .

---

(١) صَحَّحَهُ شيخُنا في « الصَّحيحة » (١١١٠)، وَمِمَّا قَالَهُ حفظَهُ اللّه : وَمِمَّا لا شكَّ فيهِ : أنَّ النِّدَاءَ المَذكُور كانَ إلهَاماً مِنَ اللّه تعالى لعُمر، وَلَيسَ ذلكَ بغَريب عَنهُ، فإنَّهُ « مُحَدَّثٌ » كَمَا ثَبَتَ عَن النَّبيّ ﷺ، وَلكن لَيسَ فيهِ أنَّ عُمَر كُشِفَ حَالُ لهُ الجَيش، وَأنَّهُ رآهُم رَأيَ العَين، فَاستِدلال بَعض المُتَصَوِّفَةِ بذلكَ على مَا يَزعُمُونَهُ من الكَشفِ للأولياءِ، وَعلى إمكَانِ اطِّلاعهم على ما في القُلوبِ من أبطَلِ البَاطِلِ، كَيفَ لا وَذلكَ مِن صِفَاتِ رَبِّ العالمين، المُنفَرِد بعِلم الغَيبِ والاطِّلاعِ على مَا في الصُّدُورِ .

وَلَيتَ شِعري كَيفَ يَزعُمُ هَؤلاءِ الزَّعمَ البَاطِل وَاللّه عَزَّ وَجَلَّ يَقولُ في كِتَابِهِ : ﴿ عَالِمُ الغَيبِ فَلا يُظهِرُ على غَيبِهِ أحَداً إلاَّ مَن ارتَضَى مِن رَسُولٍ ﴾ .

فَهَل يَعتَقِدُونَ أنَّ أُولئِكَ الأولِيَاءَ رُسُلٌ من رُسُلِ اللّه حَتَّى يصح أن يُقال : إنَّهُم يَطَّلعُونَ على الغَيبِ باطِّلاعِ اللّه إيَّاهُم (!) سُبحانَكَ هذا بُهتَانٌ عَظيمٌ .

على أنَّهُ لَو صَحَّ تَسمِيَةُ ما وَقَعَ لعُمر رضي اللّه عنه كَشفَاً، فَهوَ مِنَ =

....

=

الأمورِ الخَارِقَة للعَادَةِ، الَّتي قَد تَقَع من الكَافِر أيضاً، فَلَيسَ مُجَرَّد صُدُور مِثلِهِ بالَّذي يَدُلُّ على إيمَانِ الَّذي صَدَرَ مِنهُ فَضلاً على أنَّهُ يَدُلُّ على وِلايَتهُ .

ولذلك يَقول العلماء : إنَّ الخَارِق للعَادَة إن صَدَرَ مِن مُسلم فَهوَ كَرَامَة، وَإلاَّ فَهوَ استِدرَاجٌ، وَيَضرِبُونَ على هذا مَثَلاً الخَوَارِق الَّتي تَقَع على يَدِ الدَّجَّالِ الأكبَرِ في آخِرِ الزَّمَانِ كَقَولِهِ للسَّمَاء : أمطِري؛ فَتُمطِر، وَللأرضِ أنبِتي نَبَاتَكِ، فَتُنبِت، وَغَيرَ ذلكَ مِمَّا جَاءَت الأحاديثُ الصَّحيحة بِهِ .

ثُمَّ سَاقَ بَعضَ الأمثِلَةِ الحَديثَةِ وَقال :

اكتَفَينا بالَّذي أورَدنَاهُ لأنَّهَا أقرَبُ الأمثَال مُشَابَهةً لِقِصَّة عُمَر رضي الله عنه الَّتي طَالمَا سَمِعتُ مَن يُنكِرُها منَ المسلمينَ لظَنِّهِ أنَّها مِمَّا لا يُعقَلُ (١) أو أنَّها تَتَضَمَّنُ نِسبَةَ العلم بالغَيب إلى عُمر، بَينَمَا نَجِد غير هَؤُلاء مِمَّن أشرَنا إلَيهِم مِنَ المُتَصَوِّفَةِ يَستَغِلُّونَها لإثبَاتِ إمكَانِ اطِّلاعِ الأولياء على الغَيبِ، وَالكُلُّ مُخطِىء .

فَالقِصَّةُ صَحيحَةٌ ثَابِتَةٌ، وَهيَ كَرَامَةٌ أكرَمَ الله بِها عُمر، حَيثُ أنقَذَ بِهِ جَيشَ المُسلمينَ مِنَ الأسرِ أو الفَتكِ بِه، وَلكن لَيسَ فيها ما زَعَمَهُ المُتَصَوِّفَة من الاطِّلاع عَلى الغَيب، وَإنَّمَا هوَ من بابِ الإلهَامِ - في عُرفِ الشَرعِ - أو التَّخَاطُر - في عُرفِ العَصرِ الحَاضِر، الَّذي لَيسَ مَعصُوماً، فَقَد يُصيبُ كَمَا في هذِهِ الحَادِثَة، وَقَد يُخطِىءُ كَمَا هوَ الغَالِبُ مِنَ البَشَر، وَلذلك كانَ لكُلِّ وليٍّ مِنَ التَّقَيُّدِ بالشَرعِ في كُلِّ ما يَصدُر مِنهُ مِن قَولٍ أو فِعلٍ خَشيَةَ الوُقُوع في المُخَالَفَةِ، فَيَخرُجُ بِذلكَ عن الوِلايَةِ الَّتي وَصَفَها الله تعالى بِوَصفٍ جَامِعٍ شَامل فقال : ﴿ **ألا إنَّ أولِيَاءَ اللهِ لا خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنُونَ الَّذينَ آمَنُوا وَكَانوا يَتَّقُونَ** ﴾ .

=

وهذا مِمَّن ذَكَرَهُ اللَّه في كِتَابِهِ فقال : ﴿ يا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّه وَآمِنُوا باللَّهِ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤتِكُم كِفلَينِ من رَحمَتِهِ وَيَجعَل لَكُم نُوراً تَمشُونَ بِهِ وَيَغفِر لَكُم وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحيمٌ ﴾ [الحديد : ٢٨] .

وقَارن بينَ قَوله تعالى : ﴿ وَلَو أنَّ أهلَ القُرى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحنَا عَلَيهِم بَرَكَاتٍ منَ السَّمَاءِ وَالأرضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحنَا عَلَيهِم أبوَابَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّى إذا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أخَذنَاهُم بَغتَةً فإذا هُم مُبلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

لتَجِد أثَرَ العُبُوديَّةِ للَّه في انتفَاعِ أهلِ الإيمانِ وَالتَّقوى بِبَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالأرضِ ... بَرَكَاتٍ في الأشياءِ، وَبَرَكَاتٍ في النُّفُوسِ، وَبَرَكَاتٍ في طَيِّبَاتِ الحَيَاةِ ... بَرَكَاتٍ تُنَمِّي الحَيَاةَ وَتَدفَعَها في آنٍ؛ فَالبَرَكَةُ قَد تَكُون مَع القَليل إذا أُحسِنَ

ولَقَد أحسَنَ مَن قال :

إذا رأيتَ شخصاً قَد يَطِيرُ — وَفَوقَ مَاء البَحرِ يَسِيرُ
وَلَم يَقِف عَلى حُدُودِ الشَّرعِ — فإنَّهُ مُستَدرجٌ وَبِدعِيّ » أ . هـ

قلت : وَانظُر لِزَامَاً رسالَتي : « الرِّيَاض المُستَطَابَة في صحيحِ كَرَامَاتِ الصَّحَابَةِ » من مَنشُورَات دَار الصميعي للنَّشر وَالتَّوزيع .

الانتِفَاعُ بِه، وكَانَ مَعَهُ الصَّلاحُ وَالأمنُ وَالارتِياحُ، ولَيسَت وَفرَةٌ مُقبلَةً عَلَيهِم بِلا عَنَاءٍ، ولا كَدٍّ، مَتَدَفِّقَةً كَالسَّيلِ العَرِم بِلا حَوَاجِزَ ولا قيُودَ، ولكن مَعَها الشَقوةَ وَالتَّردِّي وَالتَّخَبُّطَ وَالاضطِّرَابَ، فكَم مِن أُمَّةٍ غَنيَّةٍ قَوِيَّةٍ لكنَّها تَعيشُ في شَقوةٍ، مُهَدَّدةً في أمنِها، مُقَطَّعَةَ الأوَاصِرِ بينَها، يَسُودُ النَّاس فيها القَلَقُ، ويَنتَظِرُها الانحلالُ، فَهيَ قُوَّةٌ بِلا أمنٍ، ومَتَاعٌ بلا رِضَى، وَهيَ وَفرَة بلا صَلاح، حَاضِرٌ زَاهٍ يَتَرَقَّبُهُ مُستَقبَلٌ نَكِدٌ .

العُبُوديّةُ وَأَثَرُها في استئنافِ حياةٍ إسلاميّةٍ راشدةٍ على منهاجِ النُّبُوّة

وَعَدَ اللَّه المُؤمِنينَ بالاستِخلاف في الأرضِ، وَبالتَّمكِينِ لدينهم الَّذي ارتَضَى لَهُم فيها، وَأن يُبَدِّلهم مِن بَعدِ خَوفِهِم أمنَاً ... وَهوَ وَعدٌ وَاقِعٌ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ، وَوَعدٌ صَادِقٌ غيرُ مَكذُوب، لأَنَّهُ وَعد اللَّه، وَوَعدُ اللَّه حَقٌّ، وَلَن يُخلِفَ اللَّه المِيعَاد : ﴿ **وَعَدَ اللَّه الَّذينَ آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَستَخلِفَنَّهُم في الأرضِ** ﴾ .

وَالاستِخلاف وَعدُ اللَّه للعُصبَةِ المُؤمِنَةِ في كُلِّ عَصرٍ فَهيَ سُنَّة من سُنَنِ اللَّه، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّه تَبديلاً، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّه تحويلاً : ﴿ **كَمَا استَخلَفَ الَّذينَ مِن قَبلِكُم** ﴾ .

وَبِدَايَةُ الاستخلاف وَآيَةُ فَهمِهِ : ﴿ **وَليُمَكِّنَنَّ لَهُم دِينهُم الَّذي ارتَضى لَهُم** ﴾ .

أمَّا أنَّ التَّمكينَ بِدَايَة الاستِخلاف، فإنَّ التَّمكينَ للدِّينِ في تَصريفِ شؤُونِ الحَيَاةِ وتَدبيرها وَالهَيمَنَةِ عَلَيها لا يَتِمُّ إلاَّ بِتَمكِينِهِ في القُلُوب، فإذا تَمَكَّنَّ الدِّين من قُلُوبِ دُعاتِهِ، وَتَغَلغَلَ في دَقَائقِ تَصَرُّفَاتِهِم فَاعلَم عندَئِذ أنَّ وَعدَ اللَّه قَريب .

وَأمَّا أن التَّمكِين آيَة فَهم الاستخلاف، فإنَّ الاستِخلاف يَكُونُ لعمَارَةِ الأرضِ على مَنهَجِ اللَّه، وَالانتِفَاع بكُلِّ ما أودعَهُ اللَّهُ فيها منَ التَّوجُّهِ بكلِّ ذلكَ إلى اللَّهِ، فالمؤمنونَ عندما يتمكَّن الدِّين من نفوسهم قَبلَ أرضِهِم أَمَروا بالإصلاحِ والعَدلِ، واستَعلوا على شهواتِ الأرضِ، وساروا بالبشريَّةِ خطوات ليحقِّقوا منهج اللَّه الذي أرادَ اللَّه، ولذلكَ فهم ينشرونَ الأمنَ ويجتثُّونَ البَغيَ والجورَ، فيكون مجتمعهم واحَةَ أمنٍ وأمانٍ وسكينَةٍ وطُمأنينَةٍ ... وهنا يبرُز أثر العبوديَّةِ للَّهِ من قَبلِ الاستخلاف والتَّمكين وبَعدَهُ في قَولِ اللَّهِ سبحانهُ في الآيَةِ نَفسها تَعليلاً للاستخلافِ والتَّمكينِ والأمنِ : ﴿ **يَعبُدونَني لا يُشركونَ بي شيئاً** ﴾، فهل تحقيقُ العبوديَّة يكون بعدَ الاستخلافِ والتَّمكين ؟

والجواب بلا خلاف أنَّ تحقيقَ العبوديَّة سببُ الاستخلافِ والتَّمكين .

إنَّ للاستخلافِ والتَّمكين تكاليفَ في ذاتِ النَّفسِ وفي

واقعِ الحياة :

للاستخلافِ والتَّمكين تكاليفُه في عدم الزُّهوِّ بهِ والبَطرِ، وفي عدمِ التَّراخي بعدهُ، والتَّهاوُن في أَمرِ اللَّه .

إنَّ كثيراً من النُّفوس قَد تثبُت على المحنَةِ والبلاءِ، ولكن القليلَ هو الذي يثبتُ على التَّمكين والنَّعماء ... أليسَ الابتلاءُ يكون بالضرَّاء والسرَّاء ؟

إنَّ ثباتَ القلوبِ على الحقِّ بعدَ التَّمكين منزلَةٌ فوقَ الاستخلافِ والتَّمكين ... فهي التي تحميهِ وتحرسهُ ... وهذه هي الحقيقَةُ التي نطقَ بها القرآن :

﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إن اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزيزٌ * الَّذين إنْ مكنَّاهُم في الأرضِ أقاموا الصَّلاةَ وآتَوا الزَّكاةَ وأمروا بالمَعروفِ ونَهَوا عن المُنكَر وللَّهِ عاقبَةُ الأمور ﴾ [الحج : ٤٠ - ٤١] .

إنَّهُ ثَبَاتٌ على المَنهَجِ بَعدَ الاستِخلافِ وَالتَّمكين كَمَا ثَبَتُوا عَلَيهِ مِن قَبلُ وَهُم يُلاقُونَ أشَدَّ أنوَاعِ الابتِلاءِ عَلى يَدِ الكَافِرين[١] .

وَبِه يَتَبَيَّن أنَّ العُبُوديَّة سَبَبُ الاستخلافِ وَالتَّمكينِ؛

---

(١) وَانظُر لِزَاماً كتابي : « الثَّبات على الإسلام » (ص ٤٤ - ٤٦) نشر دار المَنَار - الرِّياض .

فَقَد وَصَفَهُم اللَّه بالإيمان وَالعَمَلِ الصَّالِحِ قبلَ الاستخلاف وَالتَّمكين، وَهيَ غَايَة الاستخلاف وَالتَّمكين التِّي وَصَفَهُم اللَّه بِها، فقال تعالى :

﴿ وَعَدَ اللَّه الَّذينَ آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَستَخلِفَنَّهُم في الأرضِ كَمَا استَخلَفَ الَّذينَ مِن قَبلِكُم وَليُمَكِّنَنَّ لَهُم دِينهُم الَّذي ارتَضى لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعدِ خَوفِهِم أمناً يَعبُدونَني لا يُشركونَ بي شيئاً وَمَن كَفَرَ بَعدَ ذلكَ فَأُولئِكَ همُ الفَاسِونَ ﴾ [النُّور : ٥٥] .

وَأظهَرَ اللَّه نَبيَّهُ، وَمَكَّنَ لِدينِه، فَكَانوا آمِنينَ ... لَقَد تَحقَّقَ وَعدُ اللَّه مَرَّةً، وَظَلَّ مُتَحقِّقاً وَوَاقِعاً مَا قَامَ المُسلمونَ على شَرطِ اللَّه : ﴿ يَعبُدونَني لا يُشركونَ بي شيئاً ﴾ .

ثمَّ غَيَّرُوا فَغَيَّرَ مَا بِهِم : ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعدَ ذلكَ فَأُولئِكَ هُم الفَاسِقُونَ ﴾ .

إنَّ العُبُوديَّة حقيقة ضَخمَة لا بُدَّ أن يُحَقِّقها مَن يُريدُ الوُصُولَ إلى حَقيقة وَعدِ اللَّه، وَلا بُدَّ أن يَبحَثَ عن مِصدَاقِها في الحَيَاة الإسلامِيَّة، وَهوَ يُدرِكُ شروطها، قَبلَ أن يَتَشَكَّكَ أو يَرتَابَ أو يَستَبطِئَ وُقُوعَها .

إنَّهُ مَا مِن مَرَّةٍ سَارَت هذهِ الأمَّةِ عَلى مَنهَجِ اللَّه لِيَكُونَ

الدِّينُ كُلُّهُ لله إلاَّ تَحقَّقَ وَعدُ اللَّه بالاستِخلاف وَالتَّمكين وَالأمنِ : ﴿ وَلَيَنصرُنَّ اللَّهُ مَن نَصرَهُ إنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

وَإذا كَانَت العُبُودِيَّة لله سَبَبُ استِخلاف وَتَمكين جِيل القُدوَةِ الأوَّل مُحَمَّد ﷺ وَالَّذينَ مَعَهُ، فَهِيَ كَذلكَ سَبَبُ استِخلافِ وتَمكينِ الطَّائِفَة المَنصُورَة الَّذينَ هُم عَلى ما كَانَ عَليهِ مُحَمَّد ﷺ وَالَّذينَ مَعَهُ، فَلَن يَصلُح آخِرُ هذهِ الأُمَّةِ إلاَّ بِمَا صَلُحَ بِهِ أوَّلُها .

وَتَدَبَّر وَصفَ رَسول اللَّه ﷺ للجيلِ المُؤمِن الَّذي لَم يَأتِ بَعدُ، وَهوَ يَستَأصِلُ شَأفَّةَ يَهُود لِيُنقِذَ البِلاد وَالعِبَاد من مَكرِهِم وَخُبثِهِم .

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِل المُسلمونَ اليَهُودَ، فيقتُلهم المُسلمونَ، حَتَّى يَختَبِىء اليَهُوديُّ وَرَاءَ الحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فيَقُولُ الحَجَرُ أو الشَّجَرُ : يا مُسلم يا عَبدَ اللَّه هذا يَهُودي خَلفي تَعالَ فَاقتُلهُ، إلاَّ الغَرقَد[1] ، فإنَّهُ مِن شَجَرِ

---

(١) نَوعٌ مِنَ الشَّجَر مَعروف بِبَيتِ المَقدِس أنقَذَها اللَّه مِن رِجسِ يَهُود، وَأَعَادَ المُسلمينَ عَلَيهِم عَودَاً أحمَد، وَنَصرَهمُ نَصراً عَزيزاً، إنَّهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدير .

اليَهُودِ »[1].

(١) أخرَجَهُ البخاري (٦ / ١٠٣ - فتح)، وَمسلم (٢٩٢٢) وَاللَّفظُ لَهُ .

وَلَهُ شَاهِدٌ من حديث ابن عُمَر رضي الله عنهما أخرجهُ البخاري (٦ / ١٠٣ وَ ٦٠٥ - فتح)، وَمسلم (٢٩٢١) .

وَالقِتَالُ المَذكُورُ في الحديثِ هوَ مَا يَقَع عِندَ خُرُوجِ الدَّجَالِ وَنُزُولِ المَسيح عَليهِ السَّلامُ كَمَا رَجَّحَهُ الحَافِظ رحمه الله في « فتح الباري » (٦ / ٦١٠) .

وَانظُر تَفَاصِيلهُ وَأدِلَّتَهُ في كِتَابي « الفَتحُ المُبينُ في شَرح رياض الصالحينَ » .

أخطَأ كَثيرٌ منَ المُستَعجِلينَ الَّذينَ حَمَلوا الحَديثَ على مَا هوَ وَاقِع من احتِلالِ يَهود لِديار المُسلمينَ وَمَا حَولَها، حَتَّى قال قائلهُم : « في القُدسِ نَطَقَ الحَجَرُ لا مُؤتَمَر لا مُؤتَمَر » .

وَأنا قَد نَاقَشتُ - قَبلَ تِسعِ سَنَوات - أحَد زُعَمَائهم مِمَّن جَعَلَ هذا التَّحريف دَيدَنَهُ وَهَجيرَه حَتَّى سَمَّى مَجلَّة جَمَاعَتِه « وَعدُ الآخِرَة » وَعندمَا ألزمتُهُ بالحُجَّةِ وَالدَّليلِ قال : هذهِ أحاديث ضعيفة، لأنَّها تُخالف الوَاقِع .

فَأظهَرَ الله سَخيمَةَ نَفسِهِ ... لأنَّهُ رَأى أنَّها ستَهدُمُ مَا بَنَاهُ، وَتُفلِسُه من دَعوَاهُ الَّتي يَأكُلُ بِها أموَالَ المُسلمينَ بالبَاطِلِ ... وَبَعدَ خَمسِ سنين انقَسَمَت جَمَاعَته على نَفسِها ... وَأخَذَ كُلُّ فَريقٍ يَلعَنُ الفَريقَ الآخَر، وَيَقُول فيهِ مَا يُحَيِّرُ أُولي الألباب، وَيُخفي الحَقَّ وَالصَّوَاب، حَتَّى بَلَغَ الأمرُ بِهم إلى اتِّهَامِ بَعضهم بَعضاً بالعَمَالَةِ لأعدَاءِ الله، وَالتَّقرُّب بِذلكَ إلى أعوَانِهِم ... فإلى الله المُشتَكى من سماسرةِ هذه الزَّمَان : الَّذينَ يُتَاجِرونَ بالأديَانِ وَشَبَابِ

إنَّ الشَّجَرَ وَالحَجَرَ يُنَادي هذا الجيل : يا مُسلم يا عبداللَّه، فَهوَ يَصِفُهُ بالإسلامِ وَالعُبُوديَّةِ للَّه رَبِّ العالمينَ الَّذي لَهُ مَا في السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ، وَمنهُ نُدرِك أهَمِّيَّة تَحقيق العُبُوديَّة في استخلاف الأُمَّةِ الإسلاميَّة، وَاستئناف حياة إسلاميَّة راشدَة على مِنهاج النُّبُوَّةِ .

ألا إنَّ وَعدَ اللَّه قائم، إلا وَإنَّ شرطَ اللَّه مَعرُوف، فَمَن شَاءَ الوَعدَ الكَريمَ فَليَقُم بالشَّرطِ، وَمَن وَفَّى وُفِّيَ لَهُ، وَمَن أوفى بِعَهدِهِ مِنَ اللَّه ؟ « وَلَكنَّكُم تَستَعجِلونَ » .

=

المُسلمينَ .

وَهذا لا يَعني أنَّ المُسلمينَ يَنبَغي أن يَبقُوا دُونَ إعدادٍ وَتَربيةٍ مُنتَظِرينَ ظُهُور المَهدي وَنُزُول عيسى عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، فيَأتي يَهُودُ أرضَ المُسلمينَ يُنقصونَها مِن أطرَافِها، وَلا أن يَستَعجِلَ المسلمين فيُغفِلوا الإعدَادَ وَالتَربيَة الإيمَانيَّة القَائمة على تَحقيق العُبُوديَّة، فيَنقَضَّ يَهُودُ وَأعوَانُهُم عَلى غِراسِ الإسلامِ فيَستَأصِلوها قَبلَ أن تَبلُغَ السَّعيَ، وَاللَّه غَالِبٌ على أمرِهِ، وَلكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمُونَ .

وَقَد أدغَمتُ في هذهِ السُّطُورِ أُمُوراً كَثيرة سَنَبسُطُها في غَير مَوضِعٍ .

من بدع العبودية

١ - عِبادَةُ اللَّه دُونَ رَغبَةً في الجَنَّةِ أو رَهبَةً منَ النَّارِ .

ادَّعَى الصُّوفيةُ أنَّ العُبُوديَّة الحَقَّةَ هيَ مَا كَانَت دُونَ عِوَض منَ اللَّه، وَزَعَمُوا أنَّ مَيلَ القَلبِ للجَنَّةِ يُعاقِبُ اللَّه عَلَيه[١] .

وَهذِهِ العَقِيدَة مُخَالِفَة للكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِن وُجُوهٍ :

أ - وَصَفَ اللَّه سُبحانَهُ الأنبياء في عُبُودِيَّتِهِم للَّه وَتَقَرُّبِهِم إلَيهِ بأَنَّهُم كَانوا يَطمَعُونَ في جَنَّتِهِ وَيَرهَبُونَ عَذَابَهُ، فقالَ تعالى : **﴿ إنَّهُم كَانُوا يُسَارِعُونَ في الخَيرَاتِ وَيَدعُونَنَا رَهباً وَرغباً وَكَانوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠]** .

ب - وَصَفَ اللَّهُ المُؤمنينَ الكُمَّل وَالمُتَّقينَ الخُلَّص بأَنَّهُم يَعبُدُونَ اللَّه خَوفاً وَطَمَعاً، فقال :

﴿ إنَّمَا يُؤمِنُ بآيَاتِنا الَّذينَ إذا ذُكِّروا بِها خَرُّوا سُجَّداً

---

(١) وهذهِ العَقِيدَة تَجِدُها في « التَّعرُّف لِمَذهَب أهلِ التَّصَوُّفِ » لأبي بَكرٍ الكَلاباذي .

وَسبَّحُوا بِحَمدِ رَبِّهِم وَهُم لا يَستَكبِرُونَ ۝ تَتَجافَى جُنُوبُهُم عَنِ المَضاجِعِ يَدعُونَ رَبَّهُم خَوفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقنَاهُم يُنفِقُونَ ۝ فَلا تَعلَمُ نَفسٌ مَا أُخفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أعيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانوا يَعمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٥ - ١٧] .

ث - وَلَقَد كَانَ رسول اللَّه ﷺ يَسأَلُ اللَّه الجَنَّةَ، وَيَستَعيذُ بِهِ مِنَ النَّارِ :

عن أبي صالح عَن بَعضِ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ قال : قال النَّبيُّ ﷺ لِرَجُلٍ : « كَيفَ تَقُولُ في الصَّلاةِ ؟ » .

قال : أتَشَهَّدُ، وَأقول : اللَّهمَّ إنِّي أسأَلُكَ الجَنَّةَ، وَأعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، أمَا إنِّي لا أُحسِنُ دَندَنَتَكَ وَلا دَندَنَةَ مُعَاذ .

فقالَ النَّبيُّ ﷺ : « حَولَهَا نُدَندِنُ »[١] .

فإذا كانَ رسول اللَّه ﷺ يُدَندِنُ حَولَ الجَنَّةَ طَمَعاً فيها، وَيَستَعيذُ مِنَ النَّارِ خَوفاً مِنها، وَكَذلكَ كَانَ أصحَابُهُ يَفعَلُونَ، فَهَل يَتَصَوَّر المُتَصَوِّفَة المُتَهَوِّكُونَ أنَّهُم أكمَلُ إيماناً

---

(١) أخرجهُ أبو داود (٧٩٢ ، ٧٩٣)، وَابن ماجه (٩١٠) وَغيرهما .

قلت : وَهوَ حديثٌ صحيحٌ كَمَا بيَّنَهُ شيخُنا حَفِظَهُ اللَّه في « صحيح سُنَن أبي داود » وَ « صحيح سُنَن ابن ماجه » .

منِ الأنبياء عَلَيهم الصَّلاةُ وَالسَّلامُ وَالصَّحابَةُ الكِرام رضي اللَّه عنهم، وَأعمَقُ يَقِيناً من رسول اللَّه ﷺ ؟!

٢ – تَعطيل العُبُوديَّة بِدَعوى سُقُوط التَّكاليف الشَّرعِيَّة كُلَّمَا اقتَرَبَ العَبدُ مِنَ اللَّه .

قَال شَيخُ الإسلام ابن تيميَّة رحمه اللَّه :

« فَمَن وَقَفَ عندَ هذهِ الحَقيقة وَشُهُودها، وَلَم يَقُم بِمَا أمَرَ اللَّه منَ الحَقِيقةِ الدِّينِيَّة، الَّتي هيَ عِبادَتُهُ المُتَعَلِّقَة بِأُلوهِيَّتِهِ وَطَاعَةِ أمرهِ وَأمرِ رسولهِ، كانَ مِن جِنسِ إبليس وَأهلِ النَّارِ .

فإن ظَنَّ مَع ذلكَ أنَّهُ من خَوَاصِّ أولياءِ اللَّه وَأهلِ المَعرِفَةِ وَالتَّحقيق الَّذين سَقَطَ عَنهُم الأمرُ وَالنَّهيُ الشَّرعيَّانِ، كانَ من أشَرِّ أهلِ الكُفرِ وَالإلحَادِ .

وَمَن ظَنَّ أنَّ الخَضِرَ وَغَيرَهُ سَقَطَ عَنهُم الأمرُ لِمُشَاهَدَة الإرَادَةِ وَنَحو ذلكَ، كانَ قَولهُ هذا من شَرِّ أقوالِ الكَافِرِينَ باللَّه وَرَسُولهِ »[1] .

وَقَد أبطَلَ ابن قيِّم الجوزية رحمه اللَّه هذهِ الدَّعوَى، كَمَا هوَ في الفَصل الآتي :

---

(١) « العُبُوديَّة » (ص ٣٤ – ٣٥) .

لُزُوم العُبُوديّة لكُلّ عبدٍ إلى الموت

قال ابن قيم الجوزية رحمه اللَّه :

« قالَ اللَّه تعالى لرسوله : ﴿ **وَاعبُد رَبَّكَ حَتَّى يَأتِيكَ اليَقِين** ﴾ [**الحجر : ٩٩**] .

وقَالَ أهلُ النَّارِ : ﴿ **وكُنَّا نُكَذِّبُ بيومِ الدِّينِ * حَتَّى أتَانَا اليَقِينُ** ﴾ [**المدثر : ٤٦ – ٤٧**] .

وَفِي « الصَّحيح »[١] في قصَّة عُثمان بن مَظعُون رضي اللَّه عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال :

« أمَّا عُثمَان فَقَد جَاءَهُ اليَقين مِن رَبِّه » .

أي : المَوتُ وَمَا فيهِ .

فَلا يَنفَكُّ العَبدُ منَ العُبُوديَّة مَا دَامَ في دَارِ التَّكليفِ .

---

(١) أخرجه البخاري (١٢ / ٣٩٢ – فتح) من حديث أُمّ العَلاء الأنصاريَّة رضي اللَّه عنها .

وَمَن زَعَمَ أنْ يَصِلَ إلى مَقَام يَسقُطُ عَنهُ فيهِ التَّعَبُّد؛ فَهوَ زنديقٌ كافِرٌ باللَّه وَرَسولِهِ، وَإنَّماً وَصَلَ لِمَقَامِ الكُفرِ باللّه، وَالانسِلاخ مِن دِينِهِ، بَل كَلَّمَا تَمَكَّنَ العَبدُ في مَنَازِلِ العُبُوديَّة كانَت عُبُوديَّتَهُ أعظَمُ، وَالواجِبُ عَليهِ مِنها أكبَرُ وَأكثَرُ مِن الوَاجِب عَلى مَن دُونِهِ .

وَلهذا كانَ الوَاجِبُ على رسول اللَّه ﷺ - بَل على جَميع الرُّسُلِ - أعظَمُ منَ الوَاجِبِ عَلى أُمَمِهِم، وَالوَاجِبُ على أُولي العَزمِ أعظَمَ منَ الوَاجِبِ على مَن دُونِهِم، وَالوَاجِبُ على أُولي العِلمِ أعظَمُ منَ الوَاجِبِ على مَن دُونِهِم، وَكُلٌّ أحَدٍ بِحَسبِ مَرتَبَتِهِ .

وَتَأمَّل أحوَال رسول اللَّه ﷺ وَأصحَابهُ، فإنَّهُم كانوا كُلَّمَا تَرَقُّوا منَ القُربِ في مَقَامِ عظمَ جِهَادُهم وَاجتِهَادُهم، لا كَمَا ظَنَهُ بَعضُ المَلاحِدَةِ المُنتَسِبينَ إلى الطَّرِيقِ[1] حَيثُ قال : القُربُ الحَقيقي تَنَقُّلُ العَبدُ منَ الأحوَالِ الظَّاهِرَةِ إلى الأعمَالِ البَاطِنَةِ، وَيُرِيحُ الجَسَد وَالجَوَارِح مِن كَدِّ العَمَلِ .

وَهؤُلاءِ أعظَمُ كُفراً وإلحَاداً؛ حَيثُ عَطَّلُوا العُبُوديَّة، وَظَنُّوا أنَّهُم استَغنُوا عَنها بِمَا حَصَلَ لَهُم مِنَ الخَيَالاتِ

---

(١) أي : الصُّوفيَّة

البَاطِلَةِ الَّتي هيَ أمَاني النَّفس، وَخِدَع الشّيطَان، وكَأنَّ قَائلهُم إنَّمَا عَنى نَفسَهُ وَذَوي مَذْهَبِهِ بِقَولِهِ :

رَضُوا الأمَاني وَابتُلُوا بِحُظُوظِهِم
وَخَاضُوا بِحَارَ الحُبِّ دَعوى فَمَا ابْتَلُّوا
فَهُم في السُّرى لَم يَبرَحُوا مِن مَكَانِهِم
وَما ظَعَنُوا في السَّيرِ عَنهُ وَقَد كَلُّوا

وَقَد صَرَّحَ أهلُ الاستِقَامَةِ وَأَئِمَّةِ الطَّرِيقِ بِكُفرِ هَؤُلاءِ، فأخرَجُوهُم مِنَ الإسلامِ، وقالوا : لَو وَصَلَ العَبدُ مِنَ القُربِ إلى أعلى مَقَامٍ يَنَاله العَبدُ لَمَا سَقَطَ عَنهُ منَ التَّكليفِ مِثقَالَ ذَرَّةٍ؛ أي : مَا دَامَ قَادِراً عَلَيهِ .

وَلا تُصغِ إلى قَولِ مُلحِدٍ قَاطِعٍ للطَّرِيقِ في قَلبِ عَارِفٍ، يَقول : إنَّ مَنزِلَةَ القُربِ تَنقُلُ العَبدَ منَ الأعمَالِ الظَّاهِرَةِ إلى الأعمَالِ البَاطِنَةِ، وتَحمِلُ بالاستِهَانَةِ بالطَّاعَاتِ الظَّاهِرَة، وتُرِيحهُ مِن كَدِّ القِيامِ بِها »[1]

(١) « مَدَارج السالكين » (١ / ١٠٣ - ١٠٤ وَ ٣ / ١١٨ - ١٢٢) مُختَصَراً

عثرات في طريق العبوديّة

اعلَم أيُّهَا العَبدُ أنَّ المَزَالِق الَّتي يَضعَها الشَّيطَانُ في طَريقِ العُبُوديَّةِ للَّه كَثيرَةٌ، لِتَتَعَثَّر فيها، أو تَنحَرِف عَن الصِّرَاط المُستَقيم منها : الجَهلُ، وَالتَّكاسُلُ، وَالفُتُورُ، وَالانقِطَاعُ، وَلكن أخطَرَها أمرانِ هُمَا :

١ - الغُلُوُّ :

الإسلامُ وَسَطٌ في كُلِّ شَيءٍ، إذ الوَسَطِيَّة إحدى الخَصائصِ الأساسيَّةِ للأُمَّةِ الإسلاميَّةِ، الَّتي مَازَ اللَّه بِها المُسلمينَ عن غَيرهِم منَ الأُمَمِ ليَكونوا شُهَدَاءَ عَلَيهِم :

﴿ وَكَذلكَ جَعَلناكُم أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونوا شُهَدَاءَ عَلى النَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وَلذلك فَالنُّصُوصُ الشَّرعيَّةِ تَدعو إلى الاعتِدَالِ، وَتُحَذِّرُ مِنَ الغُلُوِّ وَالتَّنَطُّعِ، وَمِن ذلكَ :

عَن ابن عبَّاسٍ رضي اللَّه عنهما قال : قال لي رسولُ اللَّه ﷺ ذَاتَ غَدَاةَ العَقَبَةِ، وَهوَ عَلى رَاحِلَتِهِ : « القُط لي

حَصىً » .

فَلَقَطتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الخَذْفِ، فقال : « أمثال هَؤُلاءِ فارمُوا » .

ثُمَّ قال : « يا أَيُّهَا النَّاسُ إيَّاكُم وَالغُلُوُّ في الدِّينِ، فإنَّهُ أهلَكَ مَن كَانَ قَبلَكُم الغُلُوُّ في الدِّينِ »[1] .

---

(١) أخرجهُ النَّسائي (٥ / ٢٦٨)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وَأحمد (١ / ٢١٥)، وأبو يَعلى (٢٤٢٧ وَ ٢٤٧٢)، وَابن الجاود في « المُنتقى » (٤٧٣)، وَالطبراني في « الكَبير » (١٢٧٤٧)، وَالحاكم (١ / ٤٦٦) من طُرُقٍ عن عَوف بن أبي جَميلَة عن زياد بن الحصين ثنا أبو العالية عن ابن عبّاس (وَذَكَرَهُ) .

قالَ الحاكم صحيحٌ على شرطِ الشيْخَينِ، وَوَافقهُ الذَّهبي .

وَإنَّمَا هوَ على شَرطِ مسلم، لأنَّ زياد بن حصين أخرَجَ لَهُ مسلم فقط، فَهوَ على شرطِهِ، وَكَذلكَ صَحَّحَهُ النَّووي وَابن تيميَّة وَشيخنا حفظَهُ اللّه في « الصَّحيحة » (١٢٨٣) .

تَنبيهَات :

١ – وَقَعَ عندَ أحمد « عون » وَهوَ تَصحيفٌ صَوابهُ : « عَوف » وَهوَ ابن أبي جَميلَة الأعرَابي .

٢ – أخرجهُ أحمد (١ / ٣٤٧)، وَابن خُزَيمة (٢٨٦٨) من طَريقينِ عن عَوف حَدَّثني زياد بن حُصين عن أبي العالية الرياحي عن ابن عبّاس وَذَكَرَهُ .

قال يَحيى أحَد رُواتِه : لا يَدري عَوف : عبداللّه أو الفَضل =

وَمَن كانَ قَبلَنا هُم أهلُ الكِتابِ وَبِخاصَّةٍ النَّصارى الَّذينَ وَصَفَهُم القُرآنُ بِالغُلُوِّ، وَخاطَبَهُم اللَّهُ تعالى بقولِهِ : ﴿ قُل يا أهلَ الكِتَابِ لا تَغلُو في دِينِكُم غَيرَ الحَقِّ، وَلا تَتَّبِعُوا أهوَاءَ قَومٍ قَد ضَلُّوا مِن قَبل وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدَة : ٧٧] .

وقال : ﴿ يا أهلَ الكِتَابِ لا تَغلُوا في دِينِكُم وَلا تَقُولوا على اللَّهِ إلاَّ الحَقّ ﴾ [النِّساء : ١٧١] .

وَسَبَب وُرُود حديث ابن عبَّاس رضي اللَّه عنهما يُنَبِّهُ على أمرٍ هامٍّ، وَهو أن الغُلُوَّ يَبدَأُ بالأمرِ الصَّغيرِ، وَالشَّيءِ الحَقيرِ، وَلَن يَلبَثَ إلاَّ الوَقت اليَسيرَ حتَّى يَتَّسِع خَطَرُه، وَيَتَطايَر شَرَرُه؛ حتَّى يُقُول الغُلاةُ على اللَّهِ غَيرَ الحَقِّ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا، فَمِن الغُلُوِّ تأتي جميعُ الانحرافاتِ، فَحَقَّ عَلَيهِم

=

قُلت : أخرجهُ الطَّبَراني (١٨ / ٢٤٣ / ٧٤٢)، وَالبَيهقي (٥ / ١٢٧) من طَريقينِ عن عبدالرَزَّاق أنا جعفَر بن سُليمان عن زياد بن حصين عن أبي العاليَة عن ابن عبَّاس عن أخيهِ الفَضل قال : وَذَكَرَهُ .

قالَ الطَّبَراني : وَروى هذا الحديث جَمَاعَة عن عَوف منهم سُفيان الثَّوري، فَلم يَقُل أحَد عن ابن عبَّاس عن أخيهِ إلاَّ جَعفَر بن سُليمان، وَلا رواهُ عن جَعفر إلاَّ عبدالرزَّاق .

قلت : إسنادُهُ جَيِّد .

القَولُ فَأَهلَكَهُم اللَّه .

ولذلك حَذَّرنا رسولُ اللَّه ﷺ من اتِّباعِ سَنَنَ النَّصارى مُبَيِّناً أَنَّ الغُلُوَّ مُنافٍ لحقيقَةِ العُبُوديَّةِ فقال : « لا تُطرُوني كَمَا أطرَت النَّصارى ابنَ مَريَم، فإنَّمَا أنا عَبدُه، فقولوا : عَبدُ اللَّهِ وَرَسُولُه »[1] .

وَلَقَد بيَّنَ رَسولُ اللَّه ﷺ أنَّ عاقِبَةَ الغُلُوِّ وَالتَّنَطُّعِ وَالتَّشَدُّدِ في العُبُوديَّةِ الهلاكُ، فقال ﷺ : « هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ » قالها ثَلاثاً[2] .

وَلَقَد قَاوَمَ الرَّسول ﷺ كُلَّ اتِّجاهٍ إلى الغُلُوِّ في العُبُوديَّةِ، وَأنكَرَ عَلى مَن أرَادَ أن يُحَرِّم عَلى نَفسِهِ النَّومَ باللَّيلِ، وَآخَر الأَكلَ بالنَّهَارِ، وَآخَر إتيان النِّساء، وَآخَر أكل اللَّحم، وَبَعضُهُم هَمَّ بالاختِصاءِ مُبالَغَةً في التَّعَبُّدِ، وَزِيَادَةً في التَّزَهُّدِ، وَفي أمثالِهِم قال رسولُ اللَّه ﷺ : « مَن رَغِبَ عَن سُنَّتي فَلَيسَ مِنِّي »[3] .

---

(١) أخرجهُ البخاري (٦ / ٤٧٨ - فتح) من حديثِ عُمر بن الخَطّاب رضي الله عنه .

(٢) أخرجهُ مسلم (٢٦٧٠) من حديثِ عبدالله بن مَسعود رضي الله عنه .

(٣) أخرجهُ البخاري (٩ / ١٠٤ - فتح)، وَمسلم (٩ / ١٧٥ - ١٧٦ - نووي) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

وَرحِمَ اللّه شيخَ الإسلام القائِل :

« دينُ اللّهِ وَسَطٌ بينَ الغالي فيهِ وَالجافي عنهُ »[1] .

٢ - الكِبْر :

قال شيخُ الإسلام ابن تيَمِيَّة رحمهُ اللّه :

« وَهذا هوَ حقيقةُ دينِ الإسلامِ الّذي أرسَلَ اللّهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَأنزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، وَهوَ أن يَستَسلِمَ العَبدُ للّهِ لا لِغَيرِهِ، فَالمُستَسلِم لَهُ وَلِغَيرِهِ مُشرِكٌ، وَالمُمتَنِعُ عَن الاستسلامِ لَهُ مُستَكبِرٌ .

وَقَد ثَبتَ في « الصَّحيحِ »[2] عن النَّبيِّ ﷺ : « أنَّ الجَنَّةَ لا يُدخلها مَن كانَ في قَلبِهِ مِثقَالُ ذَرَّةٍ من كِبرٍ » .

كَمَا أنَّ النَّارَ لا يُخلَّد فيها من كانَ في قَلبِهِ مثقَالُ ذَرَّةٍ من إيمانٍ، فَجَعَلَ الكِبرَ مُقابِلاً للإيمانِ، فإنَّ الكِبرَ ينافي حقيقةِ العُبُوديَّةِ »[3] .

قلت : وَكذلك يُعَطِّلُ الكِبرُ آثارَ العُبُوديَّةِ في النَّفسِ

---

(١) وَقَد بيَّنَ رَحمهُ اللّه أنَّ الإسلامَ وَسَطٌ في كُلِّ شَيءٍ، وَأنَّ أهلَ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ وَسَطٌ بينَ الفِرَقِ في « الوَصيَّة الكُبرى » فَانظُرهُ؛ فإنَّهُ نَفيسٌ .

(٢) أخرجهُ مسلم (٩١) من حديث عبداللّه بن مسعود رضي اللّه عنه .

(٣) « العُبُوديَّة » (ص ١١٣) .

البَشَرِيَّةِ، لأنَّهُ سَبَبٌ في الإعراضِ عن آياتِ اللَّهِ، فَالمُستَكبِرُ لا يُبصِرُ آياتِ اللَّهِ المُعَبِّرَةَ النَّاطِقَةَ بالأدلَّةِ القَاطِعَةِ، فَالكِبرُ غِشاوَةٌ على عَينِهِ، فَلا يُبصِرُ إلَّا نَفسَهُ، وَلا يَشعُرُ إلَّا بِذاتِهِ، قال تعالى : ﴿ **سَأَصرِفُ عَن آياتِيَ الَّذينَ يَتَكبَّرونَ في الأرضِ بِغَيرِ الحَقِّ وإنْ يَرَوا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤمِنوا بِها وإن يَرَوا سَبيلَ الرُّشدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبيلاً وَإن يَرَوا سَبيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبيلاً ذلكَ بأنَّهُم كَذَّبوا بآياتنا وكَانوا عنها غَافِلينَ** ﴾ [**الأعراف : ١٤٦**] .

ومِنَ المَعلُومِ أنَّ الَّذينَ يَنتَفِعُونَ بآياتِ اللَّه : تَذَكُّراً وتَفَكُّراً وَشُكراً هُم عِبَادُ الرَّحمنِ، قال تعالى : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذي جَعَلَ في السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فيها سِرَاجاً وَقَمَراً مُنيراً * وَهُوَ الَّذي جَعَلَ اللَّيلَ وَالنَّهارَ خِلفَةً لِمَن أرَادَ أن يَذَّكَّرَ أو أرَادَ شُكُوراً * وَعِبَادُ الرَّحمنِ الَّذينَ يَمشُونَ على الأرضِ هَوناً وَإذا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالوا سَلاماً** ﴾ [**الفُرقان : ٦١ - ٦٣**] .

فَتَدَبَّر يا عَبدَاللَّه هذهِ الآيات البَيِّنَات لتَرى :

أ - أنَّ اللَّه ذَكَرَ آياتِهِ في السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ وَجَعَلَها بَصَائِرَ لِذَوي النُّهى، فيَتَذَكَّرونَ وَيَتَفَكَّرونَ وَيَشكُرُونَ .

ب – وَأَنَّهُ ذَكَرَ بَعدَ ذلكَ عِبَادَ الرَّحمنِ للدَّلالَةِ على أَنَّ العُبُوديَّةَ للَّهِ تَجعَلُ العَبدَ يَنتَفِعُ بآياتِ اللَّه، وَيَعتَبِرُ بِها .

ت – أَنَّهُ وَصَفَ عِبَادَ الرَّحمنِ بالتَّواضُعِ المُنَافي للكِبرِ – وَجَعَلَهُ أَوَّلَ صِفَاتِهِم – للدَّلالَةِ على أَنَّ التَّوَاضُعَ يَرفَعُ العَبدَ وَيَرفَعُ حَكَمَتَهُ؛ فَتَتَجَلَّى لَهُ آياتُ اللَّهِ في الآفاقِ وَفي نَفسِهِ، فيَعرِفُها، وَيَتَبَيَّنُ أَنَّ اللَّهَ هوَ الحَقُّ المُبينُ، فيَزدَادُ عُبُوديَّةً للَّهِ، وَأَمَّا الكِبرُ فَهوَ حِجَابٌ بينَ العَبدِ وآياتِ رَبِّهِ؛ لأَنَّ المُتَكَبِّرَ مَطبُوعٌ على قَلبِهِ : ﴿ **كَذَلِكَ يَطبَعُ اللَّهُ على قَلبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ جَبَّار** ﴾ [**غافر : ٣٥**][1] .

(١) انظُر لِزَاماً كتابي : « التَّواضُع » فَفيهِ بيانٌ شافٍ لِفَضائِلِ التَّوَاضُعِ، وَبيَانٌ كَافٍ لخُطُورَةِ الكِبرِ .

الخاتمة

رزقنا اللهُ الحسنى وزيادة

لَقَد أَمضَيتَ يا عبدَاللَّهِ شوطاً وَأنتَ تَتقَلَّبُ في مَدَارِجِ العُبُوديَّةِ للَّهِ، وَتَنَسَّمتَ عَرفَها بَعدَ أن عَرَفتَها، فَاجتَهِد أن تَلزَمَ سَبيلَها حَتَّى يَأتِيكَ اليَقِينُ، وَلا تَغفَلْ عَن تَدَبُّرِ قَولِ رَبِّ العَالمينَ : ﴿ إيَّاكَ نَعبُدُ وَإيَّاكَ نَستَعينُ ﴾، فإن عَقِلتَها فاعقِل قَدَمَيكَ بَعدَ ثُبُوتِهِمَا على الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ بالإخلاصِ وَاتِّبَاعِ إمَامِ المُتَّقِينَ ﷺ تَكُن منَ الوَارِثينَ الَّذينَ يَرِثُونَ الفِردُوسَ هُم فيها خَالِدُونَ .

وَسُبحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحمدِكَ، أشهَدُ أنَّ لا إلهَ إلَّا أنتَ، استَغفِرُكَ وَأتُوبُ إلَيكَ .

فهرس الأحاديث

فهرس المواضيع والفوائد